لجنة نشر المؤلفات التيمورية

شفاء الروح

بقلم
الكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور بك
عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

القاهرة
مطبعة دار الكتاب العربي

الطبعة الأولى سنة ١٩٥١

Shifa' al-Ruh



الكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور بك

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

مقدّمة

بقلم
خليل ثابت بك

عرفت «لجنة نشر المؤلفات التيمورية» فى خلال السنوات السبع التى انقضت على تأليفها ، بأنها دائبة السعى فى تقصى مؤلفات المغفور له العلامة المحقق «أحمد تيمور باشا» التى كتبها ولم تر النور ، لكى تزيح اللجنة الستار عنها ، وتعمل جاهدة على نشرها فى الثوب الذى تنشرها به ، تقديراً لمكانة مؤلفها القدير ، وتحقيقاً لأداء الرسالة التى حملت رايتها فى سبيل نشر الثقافة العامة .

وإذا كانت اللجنة فى خلال هذا العمل الكبير ، تجنح إلى فرع من فروع هذه الدوحة التيمورية ، وتنهض بنشر هذا المؤلف الذى نضعه بين يدى القارئ الكريم للكاتب الكبير ، والقصصى النابغـــة ، حضرة صاحب العزة الأستاذ « محمود تيمور بك » فلتؤكد أن غايتها هى النفع العلمى والأدبى بوجه عام من جهة ، وليعلم الناس من جهة أخرى ، أن هذه الأسرة التيمورية ، كبيرها وصغيرها ، ما برحت حريصة على خدمة الأدب ونشر العلم . وهو بعض ما عرف به « محمود تيمور بك » .

فقد ورث عن أبيه وجده وعمته كثيراً من حب الدرس والبحث والإنتاج ، وكان له السبق والتفوق على من سبقوه فى وضع القصة ، كما يضعها ، ويضمنها آراءه عن الحياة ، وعن الناس . ويبغى من ذلك أن يعرض ما يمر به من أحداث وأفكار للحياة المصرية الصميمة ، فى صور رائعة ، مقرونة بسهولة اللفظ ، وجزالة المعنى ، وسلامة الأسلوب حتى بلغ أوج المجد وغاية الشهرة عن جدارة واستحقاق . وهذه روائع قصصه الكثيرة المتعددة التى تتداولها الأيدى ، ويتهافت على مطالعتها الناس جميعا ، وتزدان بها المكتبة العربية ، خير شاهد بعبقريته ، وفلسفته فى الحياة ، ونظرته للأمور نظرة منزهة عن الأغراض .

من أجل ذلك آثرت « لجنة نشر المؤلفات التيمورية » أن تساهم فى نشر بعض ما يكتب هذا الكاتب القصصى ، وقد أضاف إلى تراث الأسرة التيمورية حلقة جديدة ، وأثراً نافعاً .

وسيجد القارئ الكريم فى فصول هذا الكتاب ألواناً شتى فى دراسة القضايا الاجتماعية ، وهى بعيدة كل البعد عن التقيد أو التقليد ، شأن المؤلف المبتدع فى كل ما يصوغ أو يكتب أو يؤلف . وقد قدّر له ذلك كله « مجمع فؤاد الأول للغة العربية » ، فأسند إليه عضويته اعترافاً بعلمه وفضله ؟

رئيس اللجنة

خليل ثابت

المصادر التي ألهمتني الكتابة

عندما ألتفتُ خلفي متكشِّفًا ماضيَ حياتي ، أرى أربعة عوامل أساسية قد عمِلتْ في تكويني كاتبًا :

الأول : والدي « أحمد تيمور » ، والثاني : شقيق « محمد » ، والثالث : حوادث خاصة كان لها تأثير في تحويل مجرى حياتي ، والرابع الأخير : مطالعاتي .

فوالدي جدير أن يكون قد أورثني مؤهلات الكتابة ، وقد تعهدني منذ النشأة ، وحبَّب إليَّ المطالعة والتأليف . وأخي هذَّب ذلك الحبَّ وأذكاه . وحوادث حياتي ثم مطالعاتي هي التي عينتْ لي تلك الوجهة التي أترسَّمها الآن في حياتي الأدبية .

وُلدتُ في « درب سعادة » وقضيتُ طفولتي في منزل يشبه القلعة المهدَّمة ، ونشأتُ وأنا أرى لوالدي خِزانة كتب قد خصَّها بكامل عنايته ، ولم يبخل عليها بوقته ولا بماله . فكنت أنمو وهي تنمو معي ، فتآلفْنا وتحاببنا ، ومن ثَمَّ تولد فيَّ الغرام بالكتب ، فبدأتُ أجمع ما تيسر لي جمعُه منها . وخطر لوالدي أن يُحَفِّظَنِي أنا وأخوي — مُعلَّقة « امرئ القيس » ، وكانت مهمة شاقة عليه وعلينا ، فقد كنا في سنٍّ

لا نستطيع معها فهْمَ بيت واحد منها ، واستطعنا بعد أشهر استظهارها جيِّدا ، وعَلِمَ أستاذ اللغة العربية فى المدرسة أننى أحفظ المعلَّقة ، فطلب منى أن أعتلى المِنصة ، وأُنشد إخوانى التلاميذ إياها ، فأنشدتُها ، فسُرَّ الأستاذ ، ومنحنى الدرجة كاملة . ولم أعد ألوم والدى على خطته معنا .

ولما تُوفيتْ والدتى ، ثم جَدّتى لأبى ، عزَّ على والدى البقاء فى منزل « درب سعادة » . وكانت صحته قد اعتلَّت ، فنصح له الأطباء بتبديل ذلك الوَكْر الرطب ، واختيار مسكن خَلَوِىّ جاف ، فانتقلنا إلى « عين شمس » .

هناك قضيتُ أطيبَ أيام صباى .

كان منزلنا الجديد ريفيًا صميماً ، يتوسط خمسة أفدنة مقسمة حدائق ومزارع اعتنَى والدى بتخطيطها وغرسها فى ذوق حسن ، فكنت ألعب وأمرح مع أخوىَّ فى هذا المكان الفسيح وَفْقَ هوانا . وكانت حياتنا فى هذه الفترة أقرب إلى حياة السذاجة الريفية ، فقد كان المنزل صغيراً مبنيًا باللَّبِنِ ، مؤثَّثًا فى غير ترف ، وكانت لنا خيول نجوب على ظهورها صحراء « كفر جاموس » وحقول « المطرية » .

وكانت دارنا مَهْبِطًا لكثير من علماء العصر وفضلائه ، أذكر منهم : الشيخ « محمد عبده » ، والشيخ « الشنقيطى » الكبير ، وهما ممن تَلَقَّى والدى العلم عنهم .

أما الشيخ « محمد عبده » ، فكثيراً ما ركب القطار معنا من « عين شمس » إلى « القاهرة » . وما زالت صورتُه ماثلة أمام عينى ، بوجهه الصَّبِيح ، ولحيته الجميلة ، وجلسته التى يحفّ بها الوقار والجلال .

فكنت أُصغى إلى حديثه المتزن إصغاء مسحور .

وأما « الشنقيطى » الكبير ، فقد صحبتُ مرةً والدى إلى منزله – ولعلها مرات – ولن أنسَى فى حياتى ذلك المنظَر العجيب الذى شاهدتُه هناك : شيخ أسمر هزيل يتكلم العربية الفصيحة بلهجة مغربية . يجلس متربعاً ، فى وسط حجرة تكاد تكون عارية من الأثاث ، فليس فيها إلا حصير وبعض وسائد منثورة هنا وهنالك . وخَلْفَ الشيخ أسفار متراصَّة كأنها تلال ، وبجواره مِبْصَقة لا يستغنى عنها . ومن عجيب أمره إنه إذا ذكر اسم كتاب وأراد أن يريه زائره ، تحرك فى مقعده حركة ، ثم مد ذراعه ، فإذا الكتاب فى يده .

ولا يسعنى أن أُغفل فى هذا المقام الإشارة إلى عمتى « السيدة عائشة التيمورية » الشاعرة ، فقد أدركتُها فى أُخْرَيَاتِ أيامها ، وإنى لأذكر كيف كانوا يدخلوننا إليها فى حجرتها الخاصة ، حيث تقضى شيخوختها . كانت تحتفل بنا ، وتغمرُنا بعطفها وحنانها . إنى لأتخيلها الآنَ وهى جالسة على مقعدها الفسيح تتراءى عليها المهابة ، فتتمثل لى صورة الملكة « فكتوريا » وهى متربعة على عرشها ، وكانت فى ذلك الوقت بادنة مترهِّلة ، لا تترك مقعدها إلا فى النادر ، يحيط بها سِرب من القطط مُعْظَمُه جاوز عهد الشباب ودخل فى سن الكهولة ، ولكل قطة حَشِيَّة تجلس عليها . ولما اشتدَّ عُودى واستطعتُ أن أتذوَّقَ الشعر وأفهمه ، قرأتُ الكثير من شعرها ، وحفِظتُ مَرْثِيَتَهَا الشهيرة لابنتها ، وكان إعجابى بنظمها كبيراً .

كان والدى كثيرا ما يأخذنا إلى الريف ، فنُمضى هناك إجازة الصيف . وكنت أحبّ الحياة فيه ، أقضى الوقت مع الفلاحين ، أحضر مجتمعاتهم وأستمع إلى أحاديثهم ، وأطرب لأغانيهم ، وألعب بالكرة فى بيادرهم . وعرفتُ هناك فيمن عرفت شخصية طريفة أُعْجِبْتُ بها ، هى شخصية « الشيخ جمعة » خفير « جُرن الأوسية » الذى كان موضوع أقصوصة لى فيما بعد .

وأذكر أن أول عمل أدبىّ عالجتُه ، هو إنشائى بمعونة شقيقى « محمد » صحيفة خاصة كنا نطبعها على « البالوظة » وننشر فيها أخبار المنزل والأصدقاء . وكان لنا مسرح بَيْتِىّ نقيمه بين حين وحين فى أحد الأبهاء بالمنزل ، لنمثل عليه مسرحيات ساذَجة من تأليفنا ، كنا نضعها على غِرار مسرحيات « سلامة حجازى » . وذكا ميلى للمطالعة ، فأقبلتُ على الروايات أُشبع منها رغبتى، وكان جُلُّها مترجماً مما لا قيمة فنية له . وأهدى إلىّ والدى مجلدا ضخما من « ألف ليلة » أصدرتْه مكتبة الهلال مهذَّبا ، فى طبعة مصوَّرة أنيقة ، فتعلقتُ به ، وطالعته بأكمله ، وكنتُ أجمع من يرغب فى الاِستماع من أهل المنزل ، وأعيد عليهم تلاوة ما قرأت . ولعل السر فى شغفى « بألف ليلة » فى تلك الحقبة هو مشابهتها « للحواديت » التى عشنا فى جوها رَدَحا من أيام الطفولة والصبا ، فكأنى أعود بها إلى سذاجتى الأولى ، وكلٌّ منا يشعر بحنين عظيم إلى ذلك العهد . على أن الذى كان يعجبنا من « ألف ليلة » ليس مجردَ شبهها « بالحواديت » ، بل اتساع أفق الخيال فيها ، وخِلابة حوادثها . كل ذلك فى جو شرقىّ

ساحر ، يَمُتّ إلى نفوسنا بأوثق الصلات ، جو طالما تمنينا أن نعيش فيه ، فنشعر أننا نغامر مع أبطاله ، نرتفع مع الرُّخّ إلى السماء العليا ، ثم نهبط إلى وادى الثعابين ، فمغارة الموتى ، فمدينة النُّحاس ، ثم نعود إلى الأهل والأحباب تُثقلنا أكداس من الذهب !

و « ألف ليلة » هو أحد كتب قليلة تُكَوِّن التراث الضئيل لثقافتنا القصصية . وهذا التراث هو الذى يساعد القاصّ منا على إغناء موهبة التخيل فيه . والخيال هو العامل الأساسى فى التأليف القصصى ، وبدونه يكون القاصّ عاجزا عن الخلق والابتكار ، فتخرج آثاره سطحية ، لا تزيد قيمتها على تدوين الحوادث الجارية . والحق أن « ألف ليلة » مفخرة القصة فى الأدب العربىّ ، وإن كان أصله ليس عربيًا ، فقد جاءنا من طريق الفُرْس ، وهذا يعلل لنا قوة الخيال فيه ، ثم تناولته بعضُ الأقلام فى العصور العربية بالزيادة والتغيير . فالعربىّ الأصيل لم يترك لنا تراثا يُعْتَدّ به فى القصة ، وإن كان قد ضرب بسهم وافر فى فنون الأدب الأخرى ، كالشعر والخطابة والترسل ، فقد كانت فكرته البدوية ، وحياته فى بقاع قاحلة متشابهة قَلَّت فيها ألوان الطبيعة ، وقناعته بالقليل الضئيل من أسباب العيش — من العوامل التى أبعدتْهُ عن إذكاء خياله ، وإطلاقه فى تناول أعماق الحياة وخوافيها .

وكان العصر الذى نعيش فيه قد تسلطتْ عليه النزعة المحافِظة ، فكان الكاتب يرجع غالبا فى كل ما يكتب إلى السلف الصالح ، يستعير صيغتهم فى الكتابة ، وأساليبهم فى التعبير ، وكان حديث الخلافة

الإسلامية يملأ الرءوس ، فكنا نرضى عن طيب خاطر بتبعيتنا لدار الخلافة ، ولا نفكر فى تأليف وَحدة وطنية لنا .

وإذا فكرنا فى الوطنية لم تكن وطنيتنا إلا إحياء الأمبراطورية العربية القديمة . فى ذلك الجو عِشْنا وقتا ، لا نهتدى فى طريقنا بغير هُدَى الماضى . ولكننا أخذنا نسمع على أثر تتابع البعثات إلى ممالك « أوربة » وازدياد أسباب الاتصال بيننا وبين العالم المتحضر ، نغمةً جديدة كانت تدعو إلى التجديد فى اللغة والأدب والسياسة والدين ، ولكنها قوبلت من جمهرة المعاصرين بالاستنكار . وكان زعماء هذه النهضة : « سعد زغلول » و « محمد عبده » و « قاسم أمين » و « لطفى السيد » وتلاميذه فيما بعد . فقد نبَّه « سعد » الأذهان إلى القومية المصرية ، وحددها تحديدا أخرجها عن زخارف الخلافة التركية ، وأمانى الأمبراطورية العربية . ونفى « محمدعبده » عن الدين ما كان عالقا به من الأوهام ، فأظهره على فطرته السمحة . واقتحم « قاسم أمين » ميدان المرأة ، وأخذ يمزق النقاب عن وجهها ، ويخرجها من قاعات « ألف ليلة » حيث يعبق البخور ، إلى ميدان النور والحياة والعمل .

ولما تهذَّب ذوقى فى المطالعة أقبلتُ بشغف على قراءة « المنفلوطى » فقد كانت نزعته « الرومانسية » الحلوة تملك علىَّ مشاعرى ، وأسلوبه السلس يسحرنى . وكل إنسان فى أوج شبابه تطغى عليه نزعة « الرومانسية » والموسيقى ، فيصبح شاعرا ، ولو بغير قافية ؛ وقد يكون أيضا شاعرا بلا لسان !

ولما كان شقيق الأكبر « إسماعيل » بِحُكْمِ مكانه من الأسرة قد اضطلع بزعامة المنزل ، وأخذ على عاتقه القيام بما تفرضه هذه الزعامة من اتجاه إلى العمليات ومحافظة على تقاليد الأسرة وما يتبعها من رسميات ، وجدتُ الفرصة سانحة للتخلف فى ذلك الميدان ، واستطعت أن أتحكم فى أوقات فراغى إلى حد كبير ، أصرفها — وَفْقَ ميولى — بعيدا عن الحياة العملية ومظاهر الرسميات ، فأشبعتُ ميلى إلى المطالعة .

وكان نصيب الشعر وافراً فى مطالعاتى هذه ، الشعر بنوعيه : العربى والإفرنجى ، وخاصة شعر المعاصرين . وكنت أُفضِّل منه غالباً ما كان خيالياً مغرقا فى الخيال . وكانت المدرسة الأمريكية التى أنشأها إخواننا اللبنانيون والسوريون فى المَهْجَر ، قدبسطت نفوذها على الأدب المصرىّ ، فأخِذْتُ بها ، وشُغفت كبير الشغف بزعيمها « جبران » ، ذلك الشاعر الرمزىّ المغرق فى الرمزية ، وكانت « الأجنحة المتكسرة » أول كتاب حَظِىَ منى بأوفى حب وتقدير ، فتأثرتْ به أُولَى كتاباتى ، وجُلّها من الشعر المنثور ، ذى النزعة الرومانسية وكان « لجبران » وجماعتـه مجلة تُدْعَى « الفنون » ، قرأنا فيها حقًا لونا جديداً من الأدب ، الأدب الذى يحاول أن يخرج عن نطاق التقليد فى الفكرة والقالب . هذا الأدب كان يستمد وحيه من الغرب ، وقد استحدث له أسلوبا جديداً خرج فيه عن بعض قواعد اللغة ، ونهج المنهج الإفرنجى . فاستعذبناه لطرافته وشذوذه عن المألوف . ولا جدال فى أن ذلك الأدب على عِلاَّتِه ، كان يحوى عنصر التجديد ، فلا يمكننا إنكار فضله ، فهو دم جديد جرى فى عروق أدبنا

المحافظ فَدَبَّتْ فيه حياة جديدة ، وكان للقصة نصيب لا يستهان به فى هذا الأدب « المتأمرك » ، والقصة — حتى ذلك العهد — بضاعة تكاد تكون غريبة عنا ، فتأثير هذه المدرسة فى تلك الناحية من أدبنا ظاهر ملموس.

وأخذ نفوذ هذه المدرسة يتضاءل على مرّ الأعوام ؛ إذ كثُرتْ البعوث المصرية إلى « أوربة » . فلما عاد أعضاؤها إلى مصر ، وأخذوا يبشِّرُون بمبادئ جديدة فى كل فرع من فروع حياتنا ، ومنها الأدب ، فكانت بداية نهضة جديدة ، نهضة لها خطرها . وكنا على أبواب الحرب ، وعاد شقيق « محمد » من « أوربة » محملا بشتى الآراء الجريئة . كان يتحدث بها إلىَّ ، فأستقبلها بعاطفتين لا تخلوان من تفاوت : عاطفة الحذر ، وعاطفة الإعجاب .

هذه الآراء كانت وليدة نزعة ثورية ، قِوامها جحود القديم . . . ولكن حِدَّتها أخذت تهدأ على توالى الأيام ، ومن ثم اتخذت طريقها الطبيعىّ فى التطور . والأمر الذى كان يشغل فكر أخى ، ويرغب فى تحقيقه ، هو إنشاء أدب مصرىّ مبتكَر يستملى وحيه من دخيلة نفوسنا وصميم بيئتنا .

ويحسن هنا أن أذكر حادثا مهمّا أعتقد أنه كان نقطة تحوّل فى حياتى الأدبية ، إذ وجّه مجرى هذه الحياة وِجهة معينة . أُصِبْتُ بمرض « التيفوئيد » وكنت إذ ذاك فى العشرين من عمرى — وكانت وطأة المرض شديدة علىّ ، فلزمت الفِراش ثلاثة أشهر قضيتها فى ألوان شتى من التفكير ، وأخلاط من الأحلام ، واستطعتُ أن أهضم الكثير من الآراء التى تلقيتُها من أخى ، أو استمددتُها مما قرأتُه من الكتب . فلما أبللتُ من

مرضى ، وأردتُ استئناف دراستى العالية — وقد كنت بدأتُها فعلاً — حال دون ذلك ضعف بنيتى ، فعشتُ فترةً من الزمن متعطلا ، وأطلقتُ لنفسى عِنان الحرية — شيئًا ما — نخرجتُ عن الكثير مما كان يقيّدنى من تحفُّظات الأُسرة . وشعرت باشتداد ميلى للأدب ، فرسمتُ له دراسة شِبْه منظمة ، وخصَّصْت له وقتاً معيَّناً من وقتى ، فكأَنى قد أردتُ بهذه الخطة استكمال النقص الذى لحقنى من انقطاع دراستى العليا . فما لاريب فيه أن حادث المرض كان بداية تطور جديد فى حياتى الأَدبية ، نقلنى من دور التردّد إلى دور اليقين ، ومن دور الإلمام والهوادة فى التحصيل إلى دور الجدّ فيه والاِستيعاب . وما إن مضيت فى ذلك حتى كان شقيقى قد اقتحم المسرح ، إذ كان ميدانه الأكبر ، فألَّفَ فيه بالعاميَّة ، وعالج موضوعات مستخلَصة من حياتنا المصرية فى فنّ جديد ، امتاز بوصف مُبْدَع ، وتحليل دقيق ، وأسلوب جذّاب . ومارس كتابة القصة ، فاستحدث طريقة تكاد تكون غير مألوفة فى أدبنا فى ذلك الوقت . ونظم الشعر فترجم فيه عن إحساسه المرهَف . وألَّف فى النقد المسرحىّ ، فابتدع لونا جديداً مَرِحا ، فيه هزل وفيه جِد . وعلى الجملة كان أدب « محمد تيمور » أدبا مبتكراً مادّته الحياة المصرية ، والنفس المصرية . هذا على حين أن والدى « أحمد تيمور » كان يعمل ويؤلف فى ميدان آخر — ميدان اللغة والتاريخ والأدب القديم ، لايبرح خزائنه إلا لماما ، يعيش فى جوّ المجموعات وحوادث العهد الغابر ، وقد يقضى الساعات الطوال بل الأيام فى الكشف عن لفظ أو تحقيق خبر .

فى ذلك الوقت كنت أستنير فى مطالعاتى بهداية شقيق ، فنصح لى فيما نصح بأن أطالع « حديث عيسى بن هشام » للمويلحى ، ورواية « زينب » للدكتور هيكل ، فرأيتُ فيهما لونا يختلف عن اللون الرمزى الرومانسىّ الذى كنت غارقا فيه ، لونا واقعيّا يهبط بالقارئ من سماء الخيال العليا حيث يعيش الناس كالملائكة فوق الضباب — إلى الأرض التى نحيا عليها حيث نرى الناس بشرا مثلنا ، على فطرتهم التى خُلِقُوا عليها .

و « حديث عيسى بن هشام » يعدّ فى نظرى المرحلة الثانية للقصة فى الأدب العربى بعد « ألف ليلة » ، فقد نحا فيه مؤلفه منحى عصريّا ، فخياله واسع ، وسرده ممتع ، وشخصياته لا تخلو من إحكام فى الوضع . وهو وإن كان قد تقيّد بعض التقيّد بالمَقامات فى الأسلوب والتأليف ، فقد امتاز بأنه أول محاولة ناجحة لتمصير الأدب ، وصَبْغه باللون المحلىّ الزاهى ، مع سموه عن الواقعيّة الساذَجة .

أما رواية « زينب » فهى فيما أرى تُعَدُّ أول عمل أدبىّ فى القصة المصرية ، يتضمن العناصر الأساسية للقصة الحديثة كما نعرفها اليوم .

وامتدح لى شقيق غيرَ مرة «موبسان» الكاتب الأقصوصى الفرنسى فبدأت أطالعه ، وما كدت أقرأ له مجموعة حتى فُتِنْتُ به ، وتابعتُ قراءتى إياه فى شغف عظيم . واتسعتْ مطالعاتى فيما بعد فى القصص الأوربىّ وتشعّبَتْ ، ولكننى حتى اليوم مازلت محتفظًا « لموبسان » بالمكان الأول فى نفسى ، فهو عندى زعيم الأقصوصة الأكبر . وفنّ «موبسان» فى نظرى فن كامل توافرت فيه كل العناصر اللازمة لبناء قصة قوية ، من

حيث عرضُ الموضوع ومعالجتُه ، وتحليل شخصياته ، وتسلسل الحوادث وخواتمها . كل ذلك فى وضوح واتزان . ولا أذكر أنى قرأتُ له قطعة لم تهزَّنى .

ثم انتقلتُ بعد ذلك إلى القصص الروسىّ ، وقرأتُ « لتشيخوف » و « تورجنيف » ومن ماثلهما ، فرأيتُ تأثير « موبسان » واضحاً فى بعض إنتاجهم . ويمتاز القصص الروسىّ بعنصرَىْ الصدق والبساطة ، فما القصة الروسية غير قطعة منتزعة من نفس صاحبها ومن مشاهداته ، يعرضها فى غير كلفة ولا زخرف ، وقد يقرأ الإنسان أقصوصة من هذه الأقاصيص فلا يرى فيها موضوعا تاما له بدايته ونهايته ، بل يرى صفحة ساذَجة من الحياة ، ولكن تتراءى له خلفَ هذه السذاجة الظاهرة صفحاتٌ من صميم المآسى البشرية . لذلك نعتقد أن قوة القصة ليست فى حوادثها الثائرة الفاجعة ، ولا فى مشوِّقاتها المبتذَلة التى يتعمَّد القاصّ الضعيف أن يجتلبها ليستر ضعفه وراءها ، بل إن قوتها الحقة فى بساطتها وصدقها ، وصوغها فى قالب فنىّ رفيع .

وكانت الحرب قد انتهت ، وبانتهائها ثارت فينا نزعة القومية ، وأدركْنا صلاح المبادئ التى نادى بها « سعد زغلول » وصحابته ، واتسع نطاق « المصرية » فطغى على كل شىء فى حياتنا ، سواء أكان فى السياسة والاقتصاد ، أم فى الأدب والاجتماع .

أما من الناحية السياسية ، فقد أدركنا كيف أن الدولة العثمانية التى كنا ننظر إليها زعيمة ومنقذة ، قد جعلت تنهار وينكشف لنا ضعفها ،

فعادت إلينا الثقة بنفوسنا ، ورأينا من مبادئ « ولسن » الأَربعة عشر ما يحقق لنا حياة مستقلة سعيدة لا تبعيَّة فيها ولا خضوع . فاعتزمنا أن نعمل لهذا الاستقلال ، معتمدين فى ذلك على أنفسنا وحدها .

وأما من الناحية الاقتصادية ، فقد دفعتْنا الحاجة إلى سد الثُّغْرَة التى أوسعَتْها الحرب فى وارداتنا الأجنبية ، فَنَشِطَتْ بعض الصناعات الوطنية وازدهرت ، وبدأْنا نحسُّ لذة الفوز فى ذلك المضمار ، فطالبنا بالمَزيد . وقد تأكدلنا أن فى مقدورنا السيطرة على صناعتنا إذا توافرت لدينا الجهود الصادقة . ومن ثَمَّ تأسَّس « بنك مصر » وأخذتْ شركاتُه تُولد ويشتدُّ عُودها .

أما من الناحية الاِجتماعية ، فقد شاهدْنا كيف أن الحرب فى « أوربة » قد قلبت الأوضاع ، فأنشأت نظما وأوضاعا فرضتها فرض المتحكِّم الغلاب . فلحِقَنا منها الشيء الكثير ، ورأينا أن الاِنقلاب الذى كان يقدِّر له « قاسم أمين » عشرات السنين ، يتم فى أعوام لا تتجاوز عَدَّ أصابع اليد .

أما الأدب ، فقد اصطبغ باللون المحلىّ الصارخ ، حتى أغانينا الشعبية غلبت عليها هذه الصِّبْغة . ورأينا أنفسنا نتجه نحو الواقع ، فأصبحنا عمليين بعد أن كنا شعراء خياليين . وشاع المسرح المحلىّ ، وبخاصة الهزلىّ منه ، وانتشر الاِقتباس ، وبدأ الاِبتكار ، على حين تضاءلت الترجمة . فى هذا الجو كتب « محمد تيمور » أقاصيصه : « ما تراه العيون » وقد نحا فيها نحو المذهب الواقعىّ ، وصوّر فيها مناظر مختلفة من بيئتنا المصرية وأشخاصها ، صاغها أقاصيص جمعت بين فن مبتكر وأسلوب رشيق

سهل ، فأُعجبتُ بها إعجاباً دعانى إلى أن أؤلف على غِرارِها ، فكتبتُ باكورتى فى القصة : « الشيخ جمعة » ، ثم أردَفْتُها بأقصوصة تُسمَّى : « يُحفظ بالبوسطة » . وكنتُ قد أهملتُ الشعر المنثور ، فاندفعت أكتب مترسّما فى كتابتى المذهب الواقعىّ ، وذلك بتأثير الجوّ الجديد الذى نعيش فيه ، وما كنتُ أقرؤه من قصص على هذا المذهب . وكنتُ لا أحفِل بالأسلوب احتفالى بتصوير الواقع .

وفجَعَنى القدَر وقتئذ فى شقيق « محمد » وهو فى ميعة صباه ، وشَرْخ شبابه ، وتألق أمانيه . وشعرتُ بعد موته بانهيار أمله الكبير فى إنشاء أدب مصرىّ جديد ، كثيرا ما كان يحدّثنى عنه فى حماس ويقين . ودَهَمَنى اليأس ، ورأيتُ نفسى أضعَفَ من أن أخْلُفه فيما كان يبشّر به ، فخلدتُ إلى السكينة ، وقد توقعتُ الفشل . . . وتوالت الأيام ، وبدأت عجلة الحياة القاسية تسير فى طريقها ، لا يَعْنيها من أمور العالم إلا استكمال دورتها ، فأخذتْ الجروح تندمل ، وإن كانت الذكرى باقية بقاء الرُّوح فى الجسد .

ورأيت نفسى قد نَشِطْتُ للعمل ، وجمعتُ من ضعفى قوة تقدمتُ بها فى ميدان التأليف ، وقد انطلقتُ أنفُض عنى اليأس ، وأُقصى شبح الفشل ، معتمدا على نفسى ، مهتديا بهدى شقيق الراحل . فكنت أعمل وكأنى مندفع بباعث من « واعيتى الباطنة » إلى استكمال ما كانت تصبو نفس شقيق إليه لو أتيحت له الحياة . وكنت أحس أنى بهذا العمل أرضى رُوح شقيق ، وأُقرئها واجبَ التحية والإجلال .

وما إن أقبل عام ١٩٢٥ م حتى رأيت أنه قد تجمّع عندى مادة من القصص يصحّ إظهارها فى كتاب ، فطبعتُ : « الشيخ جمعة وقصص أخرى » ثم أردفتُه بغيره .

ولما هدأتْ نزعة المصرية الحادّة بألوانها المحلية الصارخة ، واستقرتْ الأمور فى نِصابها الطبيعىّ ، تطورتْ نظرتى إلى الأدب ، فكانت فى طورها الجديد أوسعَ وأعمقَ .

وسافَرْتُ فى تلك الفترة إلى « أوربة » . ومكثتُ بها حينا يزيد على العامين ، قضيت معظمَه فى « سويسرا » . فتفرغتُ للقراءة ، واتصلتُ بالأدب الأوربىّ الحديث أقربَ اتصال . وطالعتْنى أثناء إقامتى هناك مَرْئيّات ومناظر هزّت نفسى ، وتغلغلتْ فى صميم قلبى . كما أن خِبرتى بالحياة ، ومعرفتى لها ، قد اتسعتْ وتنوعت . فكان لهذه الحياة الجديدة التى عِشتُها هناك أثر لا يُنكر فى تطورِ فكرى ، ورأيتُ على ضوء مطالعاتى الجديدة وفهمى لنظريات الأدب العالمىّ أن اللون المحلىّ ليس كل شىء ، بل هو بعض الشىء . وما الأدب الكبير إلا أن يولىَ الإنسان وجهَه شَطْرَ النفس البشرية . فحولتُ اتجاهى نحوَ هذه الوِجهة ، محاولا التقدمَ فيها ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا . وإنى الآن أعتقد أن الأديب يجب ألا يقيّد نفسه فى التأليف بمذهب يَتَرَسَّمُهُ ، فالأدب ميدان فسيح ، على الكاتب أن يمرح فيه طليقا . فليرسل رُوحَه على سجيتها ، فما المذاهب الأدبية إلا من صُنع النقاد لا من صنع الأدباء ، وضعوها لينظموا بها فنهم ، ويخضعوه لقوانين منطقية .

ولا أستطيع أن أختم هذه العُجالة قبل أن أتحدَّث عن أمر أضعه في مقدمة الأمور التى أثَّرتْ وما زالت تؤثر فى مَجْرى حياتى ، أعنى به صحتى . فقد تألبتْ علىَّ الأمراض منذ الطفولة . وأذكر بالخير طبيبى الأول ، فقد كان يجمع بين الطب والطِّيبَة ، أى بين العلم والصداقة . فلم يكن يداوى الجسم وحدَه ، بل يداوى معه النفس . كان طبيب الطفولة هذا رجلا نحيفا ذا طربوش أفطس ووجه أسمر مهزول . ولا أدرى لماذا يخطرُ ببالى كلما شاهدتُ صورةَ « دون كيشوت » هـذا الطبيب ، أو بالأحرَى هذا الصديق . كان يحضر لزيارتنا ويمكث معنا الساعات الطوال يجرِّعنا الدواء ويتجرَّعهُ معنا ، وهو يَرْوى لنا القصص والنوادر .

منـذ الصغر والعلل تتردَّد علىَّ ، حتى أَلِفتُها الآن ، وأصبحتْ غير غريبة عنى . منذ سنين طويلة وأنا فى رقابة الطب فى مأكلى ومشربى ، وفى نومى ويقظتى . سَنَّ لى هذا الجبار قوانين لا أستطيع الخروج عليها ، فأنا أعيش مِنْ مَرَضى فى قفص ، أنظر إلى الأصحّاء من الناس يستمتعون بكامل حريتهم ، فأغبطهم ، وتنالنى حسرة أليمة .

وهـكذا كنتُ أحسُّ فى أعمـاق نفسى بنقص يَحْجُزُنِى عن الاِستمتاع بما يَنْعَم به غيرى . هذا النقص دفعنى وما زال يدفعنى إلى أن أستـكمل فى الخيال ما عجزتُ عن إتيانه فى الواقع . ومع ضعف صحتى ، وما نالنى من مرض ، أجدُ نفسى قد تخطيتُ الأربعينَ وما زلتُ حيًّا أرْزَق ، فأعجَب لذلك وأقول :

« لِلّه لكَ عُمْر » !

شِفَاءُ الرُّوح

أخى المؤمن :

قُصارَى ما يطمح إليه فؤادُكَ أن تكون سعيدا . وإنك لتسعى جاهداً غيرَ وانٍ ، باذلا كلَّ مرتخص وغال ، لا قِبْلَةَ لك إلا أن تحظى بتلك السعادة المنشودة . . .

ولكنك تظلم نفسك إن عددتَ السعادة فيما يتراءى لك من عُروض الحياة ، كالغِنَى والجاه . . . فهذه العروض التى يستعصى عليكَ مَنالُها ، والتى تحْسَب الخير أجمعَ فيها ، ربما كانتْ هى باعثةَ الشقاء ، ومَدعاة العذاب .

وأنت فقد تجاهد وتجالِدُ ، حتى تبلغَ مأرَبَكَ من هذه العروض ، وما هى إلا أن يتجلَّى لك ما خَفِيَ عنك ، فتعرف بعد لأْيٍ أنك كنتَ مخدوعا تظنُّ السرابَ ماء ، وأن الغنى والجاه وما إليهما من مظاهر الحياة ، إنما هو زيفٌ باطل ، وزُخْرف زائل . . .

ويوم تقف على القِمَّة ، بعد أن صَعِدْت فى السُّلَّم الذى استهواكَ ، ترَى أنك لم تظفرْ من جوهر السعادةِ بطائل ، وأنَّ من حولك غُيومَ الحياة وظُلُماتِها مطبقةً عليك ، وأنك لم تنكشِفْ عنك البأساء والضرَّ .

ولو سمتْ نفسُك إلى أن تستَكْنِهَ سِرَّ ذلك ، لعلمتَ على يقين أن المظهَر قد غرَّك ، فقفَوْتَ أثره ، واسترسلتَ في طلبه ، فلم تُعْنَ بالْمخْبَر واللُّباب .

أخي المؤمن :

إن للسعادة لمنبعاً فيّاضا هو « الرُّوح » .

فمن تنَكَّب عنه ، لم يظفر برشفة منـــه ، ولو أدلتْ إليه السماء بأسباب ، ومن فطَن له بلغ السعادة من أقربِ باب .

ولا تبلغ الرُّوحُ هذا المبلغ من إسعاد الإنسان إلا إذا توافرَ لها الصفاء والنقاء ، فإذا هي تَشِفّ وتخِفّ ، وإذا هي تسمو إلى آفاق عُلْوِيَّة ترفعتْ عن الشوائب والأدران .

فهل لي أن أكاشفَك بما أسمّيه « تجربة » أو « وصفة » تُنيلك ما تريده لِرُوحِك من صفاء وتَطهُّر ، حتى تصلَ إلى شِفاء النفس ، وتتوفَّر لك السعادة الحقَّة ؟

لستُ أفجؤُك بما يرُوعُك سماعهُ ، أو يُعْيِيكَ فهْمُه ، أو يتعاصَى عليك إنفاذُه . . .

إنها وسيلة بالغةُ الشيوع ، قريبةُ التناول ، بيْد أن الناس قلما يلتفتون إلى سِرِّها العظيم ، وأثرِها الناجع ، فهم لا يتخذونها على النحوِ الذى يحقِّق تلك الغايةَ الغالية .

أخى المؤمن :

نُصْحِى إليك أن تَضَع مصحفا فوق وِسادك ، لا تتخذه تَمِيمةً من التمائم ، ولا تعويذةً من التعاويذ . . . وإنما تتخذه نَبْعا فياضا تستقِى منه لِرُوحك صفاء ، ولنفسِك شفاء !

لِيَكُنْ من دأبِك فى إصباحِك ألا تقعَ عينُك أولَ ما تقع إلا على هذا الكتاب الخالد ، فرَتّل منه ما تيسّر ، واملأْ سمعَك بتلك الآيات البيِّنات ، تُمْتعك بسحر البيان ، وروعة الإِيقاع . واتركْ حكمتَها البالغة تسرى فى وَليجة نفسك ، فتضيء من جوانبها ما أظلم ، وتجلو منها ما صَدِئ . فإنك لا تلبث أن تحسَّ رُوحَك قد انسكبَ عليها فيض يكفُل لها الطُّهْر ، ويثير فيها الانتعاش .

أَنْعِمْ بذلك بَدْءاً لنهارِك الوَضّاح !

لَتُصْبِحَنّ وقد شاع فى أساريرك بِشْر ، وامتلأَتْ نفسك بالثقة . وَلَتُقْبِلَنَّ على عملك ناشطا فى تيمُّن وانشراح .

وليكن كذلك من دأبِك فى ليلك أن يكونَ ذلك المصحفُ آخرَ ما تقع عليه عيناك ، قبل أن تسلم أجفانهما للمنام . فرتّل من آى القرآن ما وَسِعَك أن ترتل ، تطهيرا لنفسك مما عَلِقَ بها من غبار يومك . ونَمْ على وَقْع تلك الأهازيج العلوية ، سابحاً فى أحلام طيبة كُلُّها رَوْحٌ وريحان .

اِعمَلْ بتلك السنة لا تنحرفْ عنها يوما ، واتخذْها لك منهجا وإماما ، وانظر كيف تَصِير من حال إلى حال ، وكيف يتكامل لك حظُّك من

سعادة النفس ، ونَعيم الرُّوح .

ولا تنسَ هذا القرآن العظيم فى غُدُوٍّ ولا رواح . . . فإن أَلَمَّتْ نازلة ، أو حَزَبَ أمر ، فاجعل من آيه لك مَفْزَعا تستظل فيه من حَرِّ ما تجد ، وإنك لشاعر من ساعتك بأن الغُمَّة لا سلطان لها عليك ، وأن لك جَلَداً لا يَهِن ، وعزيمةً لا تخور .

أخى المؤمن :

مزِيَّةٌ جليلة لكَ أن يكون ذلك الذخرُ الخالدُ من كلام الله تُراثا دائياً منك ، تلتمس فيه علاجَ نفسك ، وصفاءَ رُوحِك ، وتمتلك به ناصية السعادة بمعناها الأسمى . ذلك لأن هذا القرآن الكريم يَنْأى بك عن مكارِهِ الأرض ، ليصلَ بينك وبين السماء !

إلى شلّالات "نياجارا"

الحجُّ إلى المواطن الفريدة مختلفُ ألوانُه .

فمنه حجٌّ دينيٌّ إلى البقاع المقدسة ، يلتمس المرءُ فيها شفاء النفس ، وصفاءَ الروح .

ومنه حجٌّ رياضيٌّ إلى ميادين الارتياض ، يطلبُ المرءُ فيها حَقَّ بدنه عليه ، ويبتغي النزهة والسلوى .

ومنه حجٌّ ثقافيٌّ إلى دُور العلم ، ومجامع الرأي ، ومعاهد الفكر ، يتزوَّد فيها المرءُ زادَ المعرفة ، ويقتبسُ نورَ الحكمة .

ومن الحجِّ أنواع تَعِزُّ على الإحصاء ، فيها للنفوس غذاء ، وللأذهان متاع .

فأما الحجّ إلى شلَّالَات « نياجارا » فهو فيما أرى حجٌّ شامل يحتوي دواعيَ الحجّ ومزاياه جميعاً . . .

فيه من الدين قَبْسَة ، ومن الرياضة نَفْحَة ، ومن العلم طرَف .

وإني لأسمِّيه حجًّا إلى موطن الجمال الأصيل ، ومظهره الأسمَى . إذ أن الجمال هو غاية المثل العليا في صحة الأبدان والأذهان والأرواح .

يقف الصوفيّ المتعبد أمام شلَّالَات « نياجارا » ، فيستشعر إزاءها

رُوحَ لله ، ويُؤْنِسُ من جانبها قَبَساً من نوره الأزلىّ ، ولا يلبث أن تتجلى له عظمة الخالق ، وضآلة المخلوق .

ويُسرِّح الباحث نظره فى تلك البقعة الشمالية من الدنيا الجديدة ، فيرى ذلك العُباب تتلاطم أثْبَاجُه ، وتتخبَّط أمواجه ، وكأن هديرَه الصخَّاب يقصّ على الكون أحْدَاثَ تلك البقعة التى شهدتْ هنودَها الحُمْرَ مقيمينَ على أرباضها يُسبِّحُون بحمْدِ هذه الشلاَّلات ، ويقدسون اسمَها ، وينْصِبُونها إلهاً جبَّاراً له الطَّوْع والإذعان ، فلا يفوتهُم فى كل عام أن يزدلفوا إليه بقُرْبَانٍ نفيس ، عذراءَ من ربَّات الفتنة والسحر ، يُلْقُونَ بها إليه ، ليُسبغَ عليهم بركةَ الرضا والغفران .

وإن رُوَّاد الطبيعة ليشهدون من هذه الشلالات مَنْظَرًا عجبا ، فيتساءلون : كيف انخسفتْ الأرضُ فى هذه البقعة ؟ وكيف تدفَّقَ فيها الماء ، فراح يَشُقُّهَا شقًّا ، ويُخلِّفُ فيها ضُروبا من الجزائر والبَطَائِحِ والوِهَاد ؟

وأما هُواة الرياضة وطُلَّابُها فحسْبُهُم من هذه الشلالات رَوْعَةُ المشاهد ، وطيبُ الأهوية ، وسكينة المكان .

تناهَى ذلك إلى أسماعنا ، ونحن فى « نيويورك » . . فهاج أشواقنَا إلى الرحيل ، قَصْداً إلى الشلالات .

وما إن بَنَيْنَا عزْمَنا على السفر حتى أعددْنا العُدة لهذه الرحلة ، وخرجنا عند انبلاج الصبح إلى « محطة سنترال ترمفال » فى قلب المدينة وأنتَ إذا شارفتَ المحطة فلمحتَ بناءها السامق ، حَسِبْتَ أنك

دالف إليه ليحتويك قطار الرحيل ، ولـكن شدَّ ما يَرُوعُك أن تعلم أن هذا البنـاء على سُمُوقه وفخامته ليس إلا تاجاً للمحطة يعتلِي رأسها . وأما المحطة نفسها فهى سارية فى أطباق الأرض ، ضاربةٌ فى أعماقها . تهبِط إليها ، فإذا أنت تتحدَّر فى ناطحةِ سحابٍ مقلوبة !

ما أجدرَ هذه المحطةَ بأن تُسمَّى مَدينةً وحدَها ، فهى طبقات بعضُها تحتَ بعض ، لـكل طبقة طُرقات وأبْهاء وَرِدَاه ، وفى كلِّ طبقةٍ متاجرُ ومطاعم وأندية ، ولـكلِّ طبقة مسالك تغدو فيها قِطاراتها وتروح . وعلى ذلك كله طابَع من التناسُق والنظام يأخذُ بالألباب !

تستَضِيفُك هذه المدينة ، فيروقُك أن تجوبَ فيها ، وترْحَلَ بين جوانبها ، رِحْلةً ربما صرفَتْكَ عن رحلتِك المقصودة .

وأخيراً لا تجد بدًّا من أن تستهدِيَ إلى قطارك ، فإذا دُلِلْتَ عليه دخلتَه فى سلامة الله . ويتحرك القطار كأنه يَسْبُرُ غوْرَ الأرض ، فتحس به يَشُقُّ جوفَها شقًّا ، ويلتمس له من ضِيقها مَخْرَجاً .

ويبلغ القطار مَارَبَهُ ، فيخرج على ظهر الأرض ، ميمِّماً صوبَ الشمال تستقبله أفواجُ الضوء .

ويمضى القطار لِطِيَّتِهِ ، وهو مابرح فى مناكِبِ « نيويورك » تلك المدينةِ الشاسعةِ التى تبْسُط ذراعيها ، فتحتَضِنُ المرامِىَ الفِساح .

وإنه ليخيَّلُ إليك أن القطار كلما أمعن ينتهبُ الطريق ، أمعنتْ المدينة فى مجاراته ، فـكأنما هما يتسابقان ، كفرَسَىْ رِهان ! . . .

وبعد لَأْيٍ يستخلص القطارُ أذيالَه من مخالب تلك المدينة التى

تمتدُّ ميامِنُها ومياسرُها ، حتى لتكاد لا تَدعُ لغيرها شِبْراً من المعمور .

ما ظنُّك بعشرِ ساعات فى القطار بين « نيويورك » ومدينة الشلّالات ؟ إنك لحاسِبٌ لها حسابا عسيراً من الملالة والضَّجَر ، ولكنك تدْهَش إذ تتواصل بك هذه الساعات ، وأنتَ رافِهٌ غيرُ مَلُول ولا متضجِّر . وربما كان مَرَدُّ ذلك إلى ما يتوافر فى القطار من جِلْسة رَخِية ، وأسباب للراحة كافلة ، وما تُطالعك به النافذة من مشاهِدَ للمدائن الصناعية الزاخرة بالحركة والنشاط .

وإن القطار ليُسْلِمُكَ إلى مدينة الشلالات ، وقد أدْبَرَ عنها النهار ، فما إن تبارِحُ المحطة إلى الطريق العامّ حتى تشهدَ مواكِبَ الأضواء فى غير إزعاج ، وتستشعرَ أولَ وهلة ذلك الهدوء الشامل ، ويتجلَّى لك ما طبِعَتْ عليه المدينة من رشاقة ورقّة ، فلا يلبث ذلك أن يلهيَك عما قضيتَ من ساعاتك العَشْر الطوال ، وإذا أنتَ ماض فى المدينة تَذْرَع جوانبها مستوعباً ما فيها من مباهِجَ ومُتَع .

أكان خليقاً بنا — بعد عشر ساعات فى قطار سيّار — أن نَأوِىَ على التوِّ إلى حجرتِنا فى الفُنْدُق ، نبتغى لأنفسِنا الراحه والدَّعَة ؟

لعمرُكَ ما كان لنا وقد أخلَدْنا إلى السكون على مقعدٍ لا نَرِيمُه طَوالَ مَرْحلة القطار ، إلا أن نطلقَ أقدامنا من عِقالِها ، وأن نَرُوضَ أجسادنا على الحركة والانتقالِ فى ذلك الجوِّ الرحيب .

بلدةُ الشلالات أنيقة رشيقة ، سلِمَتْ من شواهقَ تتسامَى فتنطحُ السحاب ، أو تتهاوَى فتدركُ الأرضَ السابعة . . .

بلدةٌ قِوامُها شارع عظيم تتفرع منه يَمْنَةً ويسرةً بعضُ المسالك والطرق ، لا يُعييك أن تُلِمَّ بكل ما فيها أثناء جولة أو جولتين فى ساعةٍ أو بعضِ ساعة .

هى بَلْدَةُ سُيّاح ، يتوضَّحُ طابَعُ السياحة الأصيل على متاجرها ومطاعمها وأنديتها وسائرِ مرافق الحياة فيها .

وحيثما تَرْجِعُ البصَرَ فى أطرافها تطالعك الحدائق الفِسَاح ، والغابات الرِّحاب ، والجزائر والجسور ، كأنها لَوْحٌ تفَنَّنَ رَسّامه فى تخَيُّرِ ألوانه الزاهية .

وإنك لتسير فى مسالك هذه المدينة ، فإذا أنتَ تقف فى الفينة بعد الفينةِ تُنْصِتُ إلى ذلك الدَّوِىِّ الذى يصافح سَمْعَك ، لا تعرف له مَأْتًى ، كأنما هو هُتافاتٌ تتجاوَبُ بها الآفاقُ من بعيد ، فتحسُّ لها هِزَّةً ورَهْبَة ، ولا تملك إلا أن تُمْعِنَ فى الإصغاء لتستجلىَ ذلك النداء الخفىّ . ما هو ؟ وما خَطْبه ؟ وكأن دافعاً مجهولا يثير فيك الشَّغف والتطلع .

وينتهى بك الطَّوَاف إلى الفندق ، فتحتويك حجرتُك ، وتُلْقِى بنفسك على مرقدك ، فإذا الصوتُ يلاحقُك ، ولكنه يزداد من وضوح وجلاء ، فتجد إحساسَك كله قد تجمَّع فى سَمْعِك ، لتتلقَّى به تلك الترنيمةَ التى يَعْمُرُ بها الفضاء ، وكأنما هى صوت الطبيعة يشدو ممجّداً عظمةَ الله ..

وتراك قد أسبلتَ جفنيك ، يتغشّاك سُبات عميق .

ويدركك الصباح ، فتغادرُ الفندقَ طوعاً لذلك الصوت الذى ما برِحَ يناديك ، وتدع لقدميك أن تنطلقا ، فإذا بهما تحملانك إلى تلك الحدائق

العامرة ، قائمةً على جُزُر وأشباهِ جزر ، وقد ترامى تُجاهها بساط من الماء ينحسرُ البصرُ دونَ مُنتهاه .

وإنه لماء عجيب الأطوار ، تارة هو رفيقُ الجِرْيَةِ ، وتارة هو أهوجُ عِرْبيد ، يراقصُ بعضُه بعضا ، كأنما يتواثَبُ على درَج .

وتخترق الحدائقَ والغابات ، تملأُ عينيك من مفاتن الطبيعة المتبرِّجة . . . تلك التى تتخذ لها هناك فى فصل الخريف مَنْظَراً بِدْعاً ، ورونقا عجَبا ، إذ تـكتسِى بذلك الرداء البهيج المختلفةِ أنواعُه .

وأكبرُ ما يرُوعك مما ترى ذلك البحرُ المديد من أوراق الشجر يغطِّى أَدِيمَ الأرض كلَّه . . . بحر ضَحْل لا تخشى فيه غرَقا . قدماك تخوضانه ، فتسمع لأمواجه خَشْخَشَة كأنما هى حديث ومناجاة .

ولا تفتأ تسير وأنتَ تخوض هذه الأمواج من الورق ، فى فرحة الطفل اللَّعُوب . وتشعر فى مَسِيرك بالشجر ينفُضُ عليك نِثارَ أوراقه ، فكأنما هو رَذَاذ يتساقط عليك فى كل خطوة تخطوها ، فلا تَنِى تُمِيطه عنكَ لتمضِيَ فى الطريق . . .

وَحيثُما قلَّبْتَ النظر استقبلتْك الطبيعة بزينتها : أشجار ما بَرِحت مُخْضَرَّة زاهية ، وأخرى نَصَلَت ألوانها بين صفرة وحمرة ، وأشجار تَعرَّتْ من أوراقها ، فهى تتجمَّع وتَتَـكمش أمام هَبَّات النسيم ، كأنما تستخفِى عن أعين الرُّقباء . . .

شدَّ ما تتبايَنُ ألوان الطبيعة فى حدائق تلك المدينة ، وكأن النبات

وهو يُودِّع فصل النور والتفتح يرغَب قبلَ استكانته فى فصل البرد أن يسخُوَ بكل ما فى جعْبَتِهِ من فتنة ورونق

أليس من مفارقات الطبيعة أن تبدوَ الأشجارُ عُرْيَانَةً فى فصل البرد، كاسيةً فى فصل الربيع ؟

أَمْعِنْ فكرك مَلِيًّا، يُسْفِرْ لك السرّ . . . إن هى إلا خُطة مرسومة وَفْقَ نظام طبيعىّ دقيق : الشتاء جهَامة وأَهْوِيَة، ما أقلَّ ساعاتِ النور فيه، فالناس فى معتكَفاتهم يَصْطَلون، لا هَمَّ لهم إلا النَّجاء من وطأة البرد وقُشَعْرِيرته، فهيهاتَ منهم التفاتٌ إلى زهرة تَنَضَّر، أو شجرةٍ تُورِق. فَفِيمَ تتزَيَّن الأشجار، وتتحلَّى بالأزاهير ؟ ولِمَ تتبرجُ الطبيعةُ وقد أقفرتْ المسالكُ من العيون ؟

فأما فصل الربيع ففيه تَسْطَع الأضواء، ويطولُ عمرها فى فُسحة النهار، وفيه تعتدلُ الأجواء، ويَطِيبُ الهواء. فلا يملك الناسُ إلا أن يخرجوا أفواجاً يملئون الرِّحاب، ويرسلون الطَّرْفَ متملياً محاسنَ الكون ومفاتن الطبيعة . وإذن فقد آن للشجرِ أن يتبرَّجَ، ليتصيدَ الأبصار، وَيَسْبِيَ الألباب !

ليست الطبيعةُ إلا غانيةً، قُصارَى همِّها أن تَنْصِبَ حبائلها فى أنسب الأوقات، اختلاباً للقلوب، واجتذاباً للإعجاب .

هأنتَ ذا تمضى فى طريقك، فتحسُّ أن قدميك تسيران بك فى نهج معلوم، إلى غاية مرسومة . وكلما قطعتَ شوطاً توضَّح الهدير،

واستبانَ عَصْفُه ، فإذا أنتَ خافقُ القلب واجِفُه ، وإذا أنتَ تحُثُّ خطاكَ مخترقاً تلك الحدائقَ والْمَنازهَ .

وتصحو وَئيداً من نَشْوَتِك ، فتعرف أنك لستَ فى هذا المكان بأوْحَدَ . . .

هنا وهنالك زُوَّار غير قليلين ، ليسوا وُحْدانًا ولا زَرافات ، وإنما هم أزواج من ذكر وأنثى ، كلُّ اثنين خاليان لنفسيهما تحتَ عريش أو خلف ظُلَّة، أو تَراهما مفترشَيْن ذلك البساطَ الطَّرِيفَ من ورق الشجر . وجوههم جميعاً نَواطِقُ بالطلاقة والبِشْر ، فهم يستمرِئون أزهَى ساعات العيش ، وأحلى أُوَيْقاتِ الحياة .

إنهم فى مستَهَلِّ أيام العُرْس .

وَمِنْ ثَمَّ لُقِّبَتْ تلك المدينةُ بمدينةِ « شهر العسَل » . يخِفُّ إليها الأزواج الجُدُدُ أفواجاً يغنَمُونَ فيها متاعا وبهجة . وهل يجدون لأعراسهم مَثابةً أروعَ من تلك المثابة التى خلعت عليها الطبيعة أنفسَ هِباتِها ، وَخَصَّتْها بأجمل نفحاتها ، وكَسَتْها صِبْغَةً من السكينة والهدوء يَعِزُّ وجودُها فى ذلك الوطن الأمريكىِّ الصاخب العَجَّاج ؟

وأنتَ إذا تباطأتْ خطاك ، لم يلبث الصوت الهدَّار أن يستحثَّك على المُضىِّ غيرَ وان ، حتى تبلغَ المكانَ المقصود وهناك يتبينُ لكَ أنك على رَبْوَةٍ ترتمِى دونَها المَهاوِى البعيدة ، وعلى يمينك وشمالِك تنْصَبُّ اللُّجَجُ فى تلك الْمَهاوِى غاضبة فوَّارة وإن هذه اللُّجَجَ لتقذِفُ بنفسِها قذْفا ، كتائبَ كتائبَ ، يزحمُ بعضُها بعضاً فى مصاولةٍ وغِلاب .

وإنك لتشهد ذلك الصِّراع الفريد ، إذْ تحرِصُ كلُّ كتيبةٍ من الموج على أن تسبِقَ غيرَها فى الظفر بتلك القفْزَةِ الرائعة على صدْرِ النهر السَّحيق . وما هى إلا أن تُحِسَّ فى نفسك نزعةً إلى مجاراة هذه الكتائب المتنمِّرة ، طلباً لتلك النشوة العُظْمى ، نشوةِ الوثْبِ والانْطِلاق .

وإذا أرسلتَ بصرَك ترْقُبُ الكتائب ، وهى تتساقطُ فى حميَّتِها ونشوتِها ، بهرَك منها ما تلمحُ من أبخرةٍ ناصعة ، تتخذُ منها الشمسُ غلائلَ ترْسُم عليها قوْسَها القُزحىَّ بأصباغهِ الزاهيةِ ، وألوانهِ الفاتنة .

ولا بدَّ أن يستبدَّ بك الشغفُ فتطمَحَ نفسك إلى رؤية تلك الكتائب المتحاربة فى مستقرِّها ، حيث يستقبلُها النهر ، ويفسَحُ لها فى مَجْراه طريقاً للخلاص .

وإذاً فعليك أن تتجهَّزَ لمغامرةٍ صغيرة مأمونة ، تتذرَّع فيها بما يَقيكَ البَلَلَ . إذ أن مكانك هناك عن كثَب من حِضْنِ النهر ، تنهمرُ دونه فلولٌ من تلك الكتائبِ الهاوية .

وَحسْبُكَ فى هذه المغامرة أن تكتسِىَ رداءً سابغاً من المطّاط يَشْمَلُك من الرأس إلى القدَم ، فكأنما أنتَ قادم على صيْدٍ بحْرىٍّ عظيمِ الخَطَر .

فإن هبط بك المصْعَد ، واحتواكَ شاطئ النهر ، فأنتَ من الموج المتساقطِ تُجاهَ سِتارٍ غليظٍ أو غمامٍ كثيف ، راعبٍ صوْتُه ، كأنما هو زئيرُ جحْفلٍ لجِب ، من سباعٍ ضارية ، فى فلاةٍ مُوحِشة . أو كأنه بُرْكان قدْ ثارَ وفار ، وراح يقذفُ بالْحُمَمِ ، ويَرْمِى بالجنادلِ والرَّجَم !

ياللهَوْل . . . أهذا يومُ الحَشْر ، وتلك أصواتُ الخلائقِ فى ضَجيجٍ وعَجِيج ؟ .

هذه هى الشَّلاَّلاَت الأمريكية ، وذلك هو الشاطئ الأمريكى . . .

وعلى مَدِّ البصر يتراءى لك الشاطئ الكَنَدِىُّ بشلالاته . وقد لا تقتنعُ بما شهِدتَ من ذلك الشَّطْر ، فتأبَى إلا أن تستكمِلَ متعتَك بما هنالك ، فتعبُرَ النهر على جسره العظيم ، « جِسْرِ قوْسِ قُزَحَ » ، وبذلك تنتقل من وطن إلى وطن ، وتَنْفَصِل عن أُمَّة إلى أمة . . .

أرض جديدة ، ومدينة تلقَّب بمدينة « الشلاّلات الكَنَدية » يظلِّلها عَلَم آخر ، وتقوم عليها حكومة أخرى . . .

لقد اقتسمتْ « بريطانيا » و « أمريكا » هذه الشَّلاّلات ، فكانت بينهما مُناصَفَةً ، ولكن الطبيعة لا تعرف ذلك التقسيمَ السياسىّ ، ولا تُقِيمُ له وزنا . . .

ليست بلدةُ الشلالات الكَنَدِية إلا صورةً من بلدة الشلالات الأمريكية ، أو هى تكمِلَةٌ لها . ما تجده هنا تجدُ مثلَه هنالك ، حتى رشاقة الدور ، ونظام المسالكِ والحدائق .

على أن روعةَ الشلالات الأمريكية لا تتجلّى واضحةَ المفاتن إلا حيث يأخذُها بصرُك من الشاطئ الكَنَدىّ . وأروعُ ماتكون إذا دَجا الليل ، وراحت تكتسى من سواطعِ المصابيح الكهربيّة المختلفة الألوان ، حُلَّةً رفَّافة ساحرة . . .

هنا تتزاوجُ صِبْغَة الطبيعة وصَنْعَةَ الإنسان ، فيتألفُ من ذلك

التزاوج مَنْظَر يسمو بك من حدود الحقائق الواقعية إلى آفاقِ الخيال .

وكأنك ، وأنتَ ترقُب هذه الشلالات تحتَ الأضواء الباهرة ، قد امتطيتَ الجوادَ الطائر المسحور ، فطوّح بك فى عوالم خَفِيَّةٍ من خَلْقِ الأساطير . ولا تلبث أن يُخَيَّلَ إليك أنك تشهد « جَحِيمَ دانتِي » وأن هذا الماء الثائر الوهَّاج الذى تتعدَّد ألوانه ليس إلا جانباً من جوانب تلك الجحيم ، تتلهّب شُعَلُها ، ويتصعّد دُخَانُها ، ويُدَوِّى زفيرُها . بيْدَ أنها جحيم طيِّبة مأمونة ، لا تُشعِرُكَ خوفاً ولا رَهَباً ، ولا يصيبك من نارها شُواظ . . . وإنما تملأ قلبك فتنةً ورَوْعة ، وتثير بين حناياك عبادَةَ الجمال .

وإنك لتظَلُّ فى وَقفتك ، غافلا عن وقتك ، يجول بك جوادُك الطائر فى مملكة الخيال الرَّحِيب ، متنقلا من أُفُقٍ إلى أُفُق ، يَعْرِض عليك أَفْتَنَ ما فى الوجود من مناظِرَ وصُوَر .

وما تزال فى غفْوَتِك ، بل فى نشوتك ، حتى يتلطفَ لك نسيمُ الليل ، فيعابثك بلمَساتِه ، فتصحُوَ من أحلامك راجعاً إلى دنيا الواقع ، وتتفقّدَ دِثارَك لتُحْكِم وَضْعَه على كتفيك ، وتدفعَ بخطاك إلى مستقرِّك ، وكأنك آيبٌ من سفرٍ بعيدِ الشُّقّة ، جُزْتَ فيه بآمادٍ من الحِقَبِ الخوالى .

ويستضيفُك مكانُكَ من الفُنْدق ، فتَمْضِى متصفحاً تلك المصوَّرات التى تقصُّ عليك نبأ الشَّلَّالات ، وتمثّلُ لك مفاتِنَها ، فيسترعى بصرَك منظرُها تحتَ وطأةِ الشتاء .

هذه الكتائبُ الصَّخَّابة العربيدة من الموج يكبَحُ جِماحَها البرْدُ ،

فتنقلبُ كُتَلاً صُمًّا ساكنة . بينا هي متأهبةٌ لوثبتها الجريئة ، إذا هي قد جمدت بغتة ، واستحال ماؤها السَّيَّال صفائحَ من صخرٍ أملسَ .

إنها ما بَرِحتْ في وضعِها المائيِّ تُواصِل التدفُّق ، إلا أن كتائبها وهي في مَهْبطها قد بطلتْ حركتُها ، وتماسكتْ متعلقاً بعضُها ببعض ، كأنما قد فجأَها ما يَرُوع ، فوقفتْ مستسلمةً ليس بها حَراك .

وإن منها كتائبَ أدركها القرُّ ، وهي في رأس الشلال على وَشْك الانْحِدار ، فلبثتْ معلَّقة على فمِ الهاوية ، لا هي بقادرةٍ على أن ترتدَّ ، ولا هي بقادرة على أن تُواصلَ وُثوبها إلى القاع . هي من أمرِها في حيرة ودَهَش ، تتميزُ غيظاً من عجزها وجمودها . وهاهم أولاء رُوَّاد الشلالات الذين كانوا بالأمسِ يَرْهبُون سَطْوَتها ، ويحاذِرُون الدُّنُوَّ منها ، تراهم اليومَ يتواثبُونَ على مُتُونِها في غيرِ محاذَرَة ولا رَهَب ، يسخَرون من جمودها ، ويَشْمَتُونَ بعجزها !

وثَمَّةَ كتائبُ أخرى ، باغتَها البَرْد في منتصَفِ المَهْوَى ، فجمدت وانسدَّت دونها المسالك . تبدو بقوَامِها الفارِع مصلوبةً شُدَّتْ رءوسها بأمْراسٍ إلى الحافَة ، وجُذِبَتْ أقدامُها إلى قَرَارَةِ الهاوية ، فهي ماثلة في أغلالِها تنتهبُها العيون !

ما مِنْ كائنٍ حيٍّ إلا له وقتُ راحة ودَعَة ، فهل تأبَى هذه الشلالات حُكم الطبيعة ، وتَضِيقُ بحكمة الوجود ؟

إن الشتاء ليُتِيحُ لها فرصةً للصمت والهجوع ، تستجِمَّ وتستجمِع ، متهيئةً لِصِراعٍ جديد .

.. ليس منظَر الشلالات شتاءً بأهونَ من منظرها فى الصيف ، ولكن المرءُ وَلُوعٌ أبداً بالحركة والصَّخَب ، يؤثرهما على الجمود والتوقف ... ومن ثَمَّ كان الصيف هو الموسمَ الأعظمَ لبلدة الشلالات .

تتوافَدُ على هذه الشلالات ألوف مؤلفة من الخلائق ، يحدوهم الشوق والتطلع ، وتجتذبهم مغنطيسية عجيبة تَكْمُنُ فى تلك الأمواج الزواخر . وكأنَّ هذه المِنْطَقَة الفريدة كعبةٌ يتعبَّد لِسِحرها البَشَر من كلِّ جنس ، ومن كل صُقْع .

ولم يُعوزْ هذه الكعبةَ ما يتوافرُ لمختلفِ المعابدِ والمواطنِ المقدَّسة من ألوان الزُّلْفَى وصنوفِ القرابين ...

فإذا كانت المَدِينَةُ العصرية قد اكتسحتْ أمامَها عادةَ الهنود الُحمْر الذين كانوا يزدلفون إلى الشلالات بعرائسَ يجْلُونَها لها فى الحَوْل بعد الحَوْل ، فإن البشريةَ ما زالت تقدِّمُ من ذاتِ نفسها قُرْباناتٍ لذلك المعبود العظيم !

ثمَّةَ عن كَثَبٍ من رأس الشلالات جِسْر يلقبونه «جسرَ الانتحار» ، يتهاوَى منه الناس إلى الشلالات ، فيتفانَوْن فيها . . . وقد سَجَّلَ الإحصاء جملةً من الَخلق يُلقُون بأنفسهم إلى المَهْوَى كلَّ عام .

تُرَى هل يدفعُهم إلى ذلك ضِيقٌ بالحياة ، ونَوْءٌ بالهموم ؟

أوْ هو دافع كَمِين من سحر الشلالات يحدُوهم على أن يبذُلوا أنفسهم فى سبيل الموج ، ملتمسين تلك النشوةَ الشائقة ، نشوةَ الوثبةِ العظمى ،

والاِندماجِ الأكبر فى تلك الكتائبِ العارمة التى ينطوى رَكبُها الجبار على ألغازٍ وأسرار، بعيدةِ المرمى، عَصِيَّةِ المنال؟!

مَرَّتْ عِجالاً أيامُنا فى « نياجارا »، ورجعْنا من هذه الحَجَّة قد أدَّيْنا لها شعائرَها من زَوْرَةٍ ومَطاف، تاركينَ لغيرِنا ممن مَلَكَتْهم صُوفِيَّتها أن يقدِّمُوا لها القُرْبان!

الوَرْد فى "مُونترو"

نحنُ المصريين نذْكُر « مونترو » ونحفَظُ لها فى أعماق النفوس جميلا . . .

فى هذه البقعة الكريمة تمَّتْ المعاهدةُ التى تخلصتْ بها « مصرُ » من وَصْمة مَعيبة ، وصمة ذلك الوضع العجيب الذى كان يفرِض علينا قضاءً أجنبيًّا يشْمَخُ على قضائنا الوطنىّ .

ولسنا نحن وحدَنا الذين نذكر « لمونترو » جميلَها العظيم ، فإن العالَم كلَّه يعرفُ لهذا البلد الطيِّب أنه المثابةُ التى ينفسح صدرُها لمختلف المؤتمرات الداعيةِ إلى خيرٍ ومُصافاة وسلام . . .

كأنما بُسِطَتْ هذه الرُّقْعةُ من الأرض ، لتذوبَ فى رِحابها أسبابُ الخُلْف والخصام ، فلا تتركها الوفودُ إلا وقد تصافحتْ الأيدى ، وتعاقدتْ القلوبُ على محبة ووِئام . . .

لم يكن محضَ مصادَفة أن تُكَلل مؤتمرات « مونترو » بالنجاح والتوفيق . فإنى لزعيم بأنه لا يبوء فيها مؤتمر بإخفاق ، مهما تستحكمْ دواعِى الشِّقاق .

هذا الجوّ الذى يَشِيعُ فيه الدِّفْء الوادع . . .

تلك المشاهد الرائعة التى تتبرّجُ فيها الطبيعةُ بحُلاها الفواتن ، من مروج تموج بالكروم ، وجبالٍ تُورِق وتنضّر . . .

هذه البُحَيْرة الساجية التى تنبسط صفحتُها فى إشراق وابتسام . . .

ذلك المَمْشى البَحْرِىّ الأنيق « الكورنيش » تُظَلّلهُ العرائش ، وقد تدلَّت منها الرياحين . . .

أليس فى مقدور هذه المفاتن مجتمعةً أن تُفْرِغَ السكينةَ على القلوب ، وتُشِيعَ الصفاء فى حنايا النفوس ، فلاأعصابَ تثور ، ولا بغضاء تتلظّى ؟.

وإذا عُرِفَتْ اليومَ « مونترو » بأنها مدينةُ المصالحات وفضّ الخصومات ، فإنها كذلك مُصْطَاف نادر يصطفيه الملوكُ والأمراء من حمَلَةِ التيجان وأصحاب العروش ، أوممن كانت لهم تيجانٌ أزالتْها الأحداث ، وعروشٌ أدالَتْها الأيام .

وهى كذلك مَهْوَى أفئدةِ ملوك آخرين ، تيجانُهم من ورق النقد ، وعروشُهُم مؤسَّسَات ومصانع . أولئك هم جبابرةُ التجارة والصناعة ، والطُّغاة المهيمنون على أسواقِ المال .

فى ذلك المَأْوَى الظّليل الذى تأْتلف فيه الخمائلُ فوّاحَةَ العطر ، ينْعَم هؤلاء المكدودون العِظام بأُوَيقات راحةٍ وانطلاق . .

هنالك يحْيَوْنَ حياةَ عامة الناس ، فيضعون جانبًا ما يَعتاقُهم من قيود التكاليف والمَراسِم والأوضاع .

لا تيجانَ تَنُوءُ بها الرءوس .

لا أوسمةَ تَضِيقُ بها الصدور .

لافَرْضَ لِزِىٍّ محتوم فى عَشِيَّةٍ أو غداة .

إنما هى نَزْعَة طَلَّاعة إلى الفِرار من أثقال الهموم ، وأحمال التَّبِعات .

إنما هى رغبة عارمة فى نسيان أنهم عُظماء !

أنتَ إذا جُزْتَ خلالَ الطرقات فى « مونترو » تَغْشَى فنادقها ومَشارِبَها وما يتناثر فيها من أندية اللهو ، لايُعْيِيك أن تعرِف أن هذا هو الركنُ المختار لذاك الأمير ، وأن تلكَ الزاويةَ يستأثِرُ بها ذلك العظيم .

ومن الطريف لِشَرْقِيٍّ مثلِك أن يتناهى إلى سمعه هنالك تهامُسُ الناس بأن هذا الفُنْدُقَ يتخذ زينةَ قصورِ « ألف ليلة وليلة » مرةً كلَّ عام ، إذْ ينزل به ذلك الغِطْرِيفُ الشرقىّ الكبير ، فيقضى فيه « شهرَ العسل » مصحوباً بعروسه الجديدة ، مستمتعاً معها بالليالى المِلَاح .

هذا حقًّا « شهريارُ » العصرِ الحديث ، يُعيدُ إلى الأذهان عهودَ « شهرزاد » . .

وكم فى « مونترو » من طُلَّابِ صَبْوة ، تتبيَّنُ فيهم شمائلُ من « شهريار » !

وكم فيها من ذَواتِ فتنة ، تتوضَّحُ فيهنَّ مخايلُ من « شهرزاد » !

وأنتَ إذا شئتَ أن تضعَ « لمونترو » تعريفاً موجزا ، فقل :

هى فنادق وسُيَّاح ... حتى إنه ليتراءى لكَ أن المدينةَ بيوتُها خانات ، وأهلُها ضيوفٌ نُزَلَاء !

إنها تجمع شتَّى الأجناس ، فيها من صنوف البشر ما لايَخْطُرُ لكَ على بال :

هنالك إنسان الشّمال يساير إنسانَ الجنُوب .

هنالكَ مَعْرِض دائم من الأسمر والأشقر ، ومن الأحمر والأصفر ، إلى غيرهم من ذَوِى الصور والألوان .

ولـكن المدينة الآن على الرغم من ذلك يستأثر بالغَلَبة فيها عنصرُ « الأمريكان » . . .

فيها تجد « أمريكا » كامنةً فى كلٍّ ركن ، مُطلَّة من كلّ أُفُق . . .

فلوأنك هَزَزْتَ غصنَ شجرة ، فى خمائلها ، لهَبَط عليك أمريكىّ كان يُزاحِمُ الأطيارَ فى الأوكار !

هذه البلدة الصغيرة التى يَتَبَنَّاها سَفْحُ جبل متواضع ، قد استطالت على « أمريكا » بلدِ الشواهق والشوامخِ ناطحاتِ السُّحُب !

يُهْرَعُ الأمريكىّ إلى « مونترو » ليصيبَ فيها جوهرًا يَعِزُّ عليه مَناله فى وطنِه العظيم . . .

ذلك الأمريكىّ تّطْحَنُه الآلةُ الصاخبة بلا رحمة ولاهُدْنة ولامَهَل ، كما تدور الدّوّامة العاتيةُ فى عُبَاب زاخِر .

وإنه ليفْزَع إلى « مونترو » ليتلمَّسَ فى أرضها ذلك الجوهرَ العزيزَ من التّراخِى ، أو مايسمونه « الرِّيلاكْس » ! .

فى حِضْنِ الطبيعة الحَنُون ، بلا صَنعة ولازُخْرف ، تبيع «مونترو» للأمريكيين مُتْعَةَ « التراخى » ، وهم الرابحون ، مهما يبذُلوا من الهَيْلِ والهَيْلمَان !

ولـكن « مونترو » فوقَ ذلك كله تتميَّزُ بأنها بلد الورود . . .

الوردُ فى كل مكان ، يصافح عينيْك بمرْآه ، ويمازجُ أنفاسك بطيبِ ريَّاه !

تراه منثورا على صفحات التلال ، بهيجَ الألوان . . . بل إنه ليتسلَّل إلى المسالك والدروب ، يكسوها بنسيجه من المُخْملِ والدِّيباج .

تراه يُشْرِفُ من النوافذ مَزْهُوًّا فى الأُصُصُ الأنيقة ، يُحييك ويبتسم لك فى إشراق .

الشُّرُفات به حالِيَة ، فكأنما هو وَشْىٌ جميل تتبرَّجُ به الدُّور .

وثَمَّةَ ورد آخر فى « مونترو » هو أفتنُ ما حوَتْ من ورود . . زَهَرات آدميّة ، تعلو بفتنتها وحسنها على كلّ ما تُنْبِت الطبيعة من رَيْحان !

أينما تَلَفَّتَّ اجتذبتْ ناظرَك زهرة مُتَنقِّلة ، يتمايلُ غصنُها الرَّطِيب من دَلالٍ وإغراء .

إنها زهرةُ الطبيعة الحَقَّة ، تَجِيشُ فيها حرارةُ الحياة !

الورد فى « مونترو » يتجلَّى فى كل شىء . . .

الورد يَتَنَضَّر فى الخدود ، يُثِير الفتنةَ والسحر !

الورد على الشِّفاه ، ينساب رِقَّةً فى الكلام !

الورد فى النظرات : سِهام ناعمة تَلْمِسُ شَغَاف القلوب !

وأعجَبُ ما يروعُك من هذه الزهرات الآدمية ما تتراءى فيه من أشتاتِ الأزْياء . فلكل زهرةٍ ذوقُها فيما تختار من ثوب ، وإنها لتخترع الصور والأشكال طريفةَ الطِّراز ، تكاد تسمو بها على آفاقِ الخيال .

أزياء النساء فى « مونترو » لا يحكمها تقليد ، ولا يَضبطُها نظام . فهى تعبّر عن نزعة الطلاقة ، ورغبة التحرُّر ، حتى لتبلغ درجة الشذوذ.

لكأنهنّ فى مَحْفِلٍ من محافل التَّنَكُّر ، أبدعته ساحرات من بنات الجنّ ، لا صبايا من بناتِ البشَر . . .

القُمْصَان الحريرية الملوَّنة تارةً فضفاضة ، وتارةً لَصِيقَة . طوراً كاسية ، وطورا كاشِفَة . وإنها لتنبسطُ على الأجسادِ أو تنحسر ، كأنها أمواجُ البحْر ، بين مَدٍّ وجَزْر . . .

يَميناً إن هذه القمصان لكاذبةٌ أَبْيَنَ الكذِب إذْ تَدَّعِى أنها أداةُ سَتْر ، وآيةُ صون . فإنها لَتُفْشِى جَهْرَةً أسرارَ الجمال الجاثمة على الصدور !

وثَمَّةَ سَرَاوِيلُ . . . لا تدرى أىّ نوع هى ؟ سراويل متوهجة الألوان أو وادعة ، بين قصيرة وطويلة ... تنكمش وتتقاصّ ، حتى تَدَع مفاتِنَ السيقان نَهْباً للعيون ؛ وتبدو سابغةً موّاجة ، فتثير الشَّغَف ، وتُذْكِى نوازعَ التطلع والفضول !

وثَمَّةَ مناديلُ . . . مناديل هفهافة على الرءوس ، رفّافة بألوانها الزاهية . . . كأنها تَقُصُّ علينا صفحةً جديدة من قصة الورود !

وأنتَ تَنْسَى ولا تَنْسَى مَنظرًا من أطرف مناظرِ تلك الزهرات الآدمية فى ذلك البلد الأنِيس . . .

أسرابٌ منهنّ يعتلين الدَّرّاجات ، يتباهَيْن بأثوابهنّ الغرائب ، وينطلقن فى نَشْوة ومِرَاح ، فتلمحُهنّ حمائمَ طائرات ، تستَرْوِحُ من خطراتهنّ أنسامَ الرَّبيع !

صَحيفة الخائبين

«أمريكا» بلدُ الاختراع ، لانزاع . . .

هى التى تتولَّى اليومَ مُوافاةَ العالم بكل طريف مبتكَر ، جليل النفع أو تافه الجدوَى . . .

فالحياة الأمريكية يتمثل فيها الوَلَع بالابتداع والاستحداث . ومَن كان وَلُوعاً بأن يبتدعَ فى كل مَنْحًى من مناحِى الحياة ، ويستحدثَ فى كل مرْفقٍ من مرافقِ العيش ، فإنه لا يسلَم من السُّخْف بعد السُّخْف ، ولا يَضْمَن التوفيقَ فى كل آن .

ومهما يكن من أمر ، فقد أخذَتْ « أمريكا » على نفسها أن تقدمَ للعالم على الدوام ولاأمَ تزدحم فيها أنواعٌ من الصِّحاف مختلفةُ الألوان ، متباينةَ الطُّعوم . ولكل امرئٍ أن يصيبَ منها ما يجدُه لذيذَ المأْكَل ، طيِّبَ المذَاق .

وهأنذا أصفُ للقارئ بِدعةً أمريكية جديدة ، صادفتُها فى عالمَ الصِّحافة منذ عهدٍ قريب .

إنها بِدعة متواضِعَة غاية فى التواضع ، ولكنها فيما أرى بدعةٌ لها فى ميدانها شأن عظيم . وما أحقها بأن تُتَّخَذ نَمُوذجاً يُحتَذَى

فى ميادينَ أُخرى غَيرِ مَيْدان الصِّحافة .

تساقطَتْ إلىَّ مجلة تُسَمَّى : « مجلة القصص المرفوضة » ، فما إن أَلْقَيْتُ نظرةً على صفحاتها حتى أَلْمَمْتُ بِمَشْرَبها ، وتبيَّنتُ مَقْصِدَها .

هذه المجلة القَصَصِيَّة لاينفسح فيها مجالُ النشر إلَّا لقصةٍ سبق أَن رَفَضَتْ نشرَها الصُّحف والمجلات !

وعلى رأْس الشروط المطلوبة لنشر القصة المرفوضة أَن تكون مصحوبةً بشهادة من الصحيفة التى رفضتْها ، تُثْبِتُ فيها أَن هذه القصة حقا كان نصيبها الرفض . فالمجلة تأْبَى كلَّ الإباء أَن تَفْسَح صفحاتها لقصة لم تظفَر بشهادة سقوطٍ وخيبةٍ مُصَدَّقٍ عليها من جهات الاِختصاص !...

وليس من غرض هذه المجلة أَن تنشر القصةَ جَبْرًا لخاطر مؤلفها الخائب ، أَو إعلاءً لشأْنها ، ونَقْضًا لما صدر عليها من حكمٍ . ولكن المجلةَ ترمى إلى غرض تعليمىّ كريم . فهى تَنْشُر القصةَ المرفوضةَ مشفوعةً بنقد فنىّ صريح ، لا محاباةَ فيه ولا دِهانَ ؛ يدبِّجُه كاتب من أَعلامِ النُّقَّاد...

وإن فى هذا الصنيع لفائدةً عظيمةً لصاحب القصة خاصَّةً ، وللقرَّاء عامة .

فأما فائدته لصاحب القصَّة ، فهى :

أولاً : أنه يَظْفَر بنشر قصته ، وإذاعةِ اسمه . ولا يَغُضُّ من تلك الفائدة أن النشرَ والإذاعةَ فى مَعْرِض الخيبة والإخفاق ، فقد

طبع كثير من الناس على حُبّ الظهور فى أىّ مظهر . وإن هؤلاء لَيَتَشَهَّوْن أن تُنْشَر أسماؤهم ، ولو فى باب الوفيات !

والفائدة الثانية لصاحب القصة ، أنه يَطَّلِع على نقد متين لقصته ، يبصّره بمواطن ضعفه ، ويهْدِيه سبيلَ التجويد والإتقان .

وأما فائدةُ القرّاء عامةً فهى اشتراكُهم فى تعَرُّف مواطن الضعف فى التأليف القصصىّ ، واستجلاء نماذجَ من السَّقَطات التى تورّطتْ فيها أقلامُ القُصّاص . ولا غُنْيَةَ لأديب ، ولا لراغب فى معالجة الكتابة القصصية ، عن هذه الدروس التى تَحْفِل بضروب من الموازنة والهداية والتبصير .

وإذن فهذه المجلة ، « مجلة القصص المرفوضة » ، بدعة حسنة نَحْمَدُها للعقلية الأمريكية الفتيّة ، ونرجو أن يكون لنا فيها عظة ومُعْتَبَر . . .

فأنا أَهِيبُ برجال الصّحافة أن تكونَ لهم فى هذه البدعة الحسنة ، أُسْوَةٌ حسنة . فليتقدمْ منهم متقدِّم ، وليتوكّلْ على الله فى إنشاء صحيفة يُسَمِّيها :

« صحيفة الخائبين » !

ولستُ أرى أن تكونَ مقصورةً على القَصص وحدَه ، ولا على فنون البيان خاصّة ، وإنما أقترح أن يتسع مجالُها لشتى الأغراض فى حياتنا الاِجتماعية ، حتى لا يَجْنِيَ ثمرتها فريقٌ دونَ فريق . فإنها متى عَمَّت أغراضُها عمّ الاِنتفاع بها بين الناس .

فلتكن صحيفةَ الخائبين جميعاً ، ولتشملْ كلَّ فرعٍ من فروع الحياة . . .

ما أكثرَ مَن خابوا ، أو من يتوهمون أنهم خابوا ، فيفرُّون من الميدان متشائمين ينطوون على هزيمة ويأس . وخير لهؤلاء جميعا أن يجدوا فى هذه الصحيفة مُتنفَّسًا ، فيَعْرضوا قصص إخفاقهم صُرحاء لا يدارون ولا يكابرون . على أن يكونَ من وراء كل قصة تعقيب علميّ يشرح أسبابَ الإخفاق ، ويهدِى طريقَ النجاح . . .

لماذا ندعُ الخائبَ صريعَ خيبته ، لا يجدُ من يُعينُه على النهوض لِاستئناف السعى ومواصلة الكفاح ؟

إن الخائبَ فى الحياة عضو أشلّ ، بل هو فى أغلب أحواله عنصر هدَّام . فالإخفاق يَغرِسُ فى نفسه الحقد ، وما الحقدُ إلا توْأم الشرّ ، وزِنادُ الكَيْد . وما من خائبٍ إلا يُبْغِضُ من يراه ناجحا دونَه ، فيعمل على النَّيْل منه ، ما واتتْه الحِيلةُ ، وأسعفتْه الوسيلة .

كيف لا نبْذُل الجهدَ إذن حتى نجعلَ من هذا الخائب ناجحا جديدا ، يؤازر فيما يعودُ على المجتمع بالخير والنفع ؟

وإذا كنا نُهيبُ بأرباب الصحف أن ينشئوا هذه الصحيفة الجليلة ، فإنهم لا يبلغون مآربَهم من إنشائها إلا إن رَحَّب جَمْع الخائبين ببذل العون فى صراحة وجُرْأة وإقدام . . . فعلى أُولئك السادة ، أعلام الخيبة ، وأبطالِ الإخفاق ، يقعُ العِبْء الأكبر فى هذه الصحيفة . وبِفَضْلِ معونتهم الصادقة يتوافَرُ لها التوفيق فى تحقيق غايتها المُثْلَى .

وإن صحيفة هذا شأنُها لهى صحيفة تَخْدُمُ المجتمعَ كله . تخدم الناجح المتألِّق فيحرصُ على أسباب نجاحه ، ويتجنَّبُ مواردَ الإخفاق . وتخدُم الخائبَ الأصيلَ المُزْمِن فيعالج الداء ، ويتلمَّسُ السبيلَ إلى الشفاء . وتَخْدُم الخائبَ الناشئ فيتنكَّبُ عن الهُوَّةِ التى زلَّتْ فيها قَدَمه ، ويتلافَى ما كان من أمره ، ويتخذُ له فى الحياة مسلكا قويمًا .

أما رياسة التحرير فى هذه المجلة الفريدة ، فإنى أقترح أن تُسْنَد إلى خائب مكين فى مضمار الحياة ، بارع الإخفاق فى مختلف الآفاق ، حتى يكون بهمته الجديدة واسعَ الخبرة ، سريع الفطنة ، فيرى فيه الخائبون جميعاً مَرْجِعًا وثيقاً لأصول الخيبةِ وفروعها !

فمن ذا الذى يأنَسُ فى نفسه الشجاعةَ والصراحةَ والكفايةَ لهذا المُهِمّ ، فيرشح نفسَه لرياسةِ تحرير تلك الصحيفة المنشودة ، حتى يُثبتَ بحق أنه الخائب الأوّل ، أو الزعيم الأكبر لَجمْع الخائبين ؟ !

"بلاص" الجمال

استقرّ المقام بصديق « عزّوز » فى الرّيف . ولم ينسَ أن يواتيَنِي فى الفينة بعد الفينة برسائلَ طريفة تصفُ حياته هنالك ، وتجلو ما يدور بخاطره . ولطالما جَنَح فيما يكتب إلى الإغراق والشذوذ عن المألوف .

وحسْبي أن أشيرَ إلى رسالته الأخيرة التى ملأها بتعليقاته ، أو بالأحرى « بتقليعاته » فى شأنٍ من شئون الحياة الريفية .

وإنى إذْ أُبيح لنفسى نَشْرَ رسالته تلك ، فإنما يشجعُنى على ذلك أن صديقى مُضْرِب عن مطالعة الصُّحف ، وقراءة الكتب ، منصرِفٌ إلى حياة الفأس والمِحْراث .

وأكبر يقينى أن إذاعتى لفكرته ستظلُّ سرًّا مكتوماً عنه . وفى ذلك ما يُخْلِينى من التَّبِعَة أو المَلام .

يقول — بعد التحية — فيما يقول :

« استرعَى نظرى قَوام صبايا الريف فى مِشْيَتِهِنّ المعتدلة ، وقد استقامت هاماتهنّ ، فعجبتُ كيف لا يكون هذا القَوام السَّوِيّ لفتيات المُدُن ؟ على حين أن كثيراً منهنّ يزاولن التّمرينات السّويدية التى هى

أشْبَهُ بالحركات « البهلوانية » ، مما تطالعنا به الصحف والمجلات فى اليوم بعدَ اليوم . . . ولست أدرى أتطالعُنا به لكى تحبب الرياضةَ إلى المرأة ، أم هو اجتذابٌ لعين الرجل ، وإذكاءٌ لدواعى الإغراء ؟

عجبتُ لذلك كلَّ العجب ، فالريفيّات بحمد الله لا يعلمن قليلا أو كثيراً من شأن تلك التمرينات ، ولو عرَفْنَ منها شيئاً لما آمَنَّ بأن لها أية فائدة !

وهل ننكر أن الكثرةَ الغالبة ممن يتبخترنَ من المدنيّات فى الطرق ، لا يُحسِنَّ السيرَ على أسلوبهِ الأصيل ، وفَنِّه الجميل ؟

فأما الريفية فهى على غرارتها تمتاز بمشية صحيحة . ولعل لسذاجة الريف فضلا فى احتفاظ المرأة هنالك ببصيرتها النَّيِّرة التى تَهْديها إلى الظهور بالمظهر الملائم لها باعتبارها أنثىٰ . وعلى العكس من ذلك يَطْمِسُ التمدُّنُ بصيرةَ المرأة فى المدينة ، فلا تعرف كيف تسير السيرَ الفنىَّ الذى يَكْفُل لها رَشاقة القوَام .

وقد بذلتُ جهدى باحثاً منقباً ، أستجلى سرَّ تلك الموهِبة الريفية ، فانتهىَ بى البحث والتنقيب إلى كشف جديد لا يُسْتهان بأمره ، ولا يَقِلُّ شأناً عن أىّ كشف وطنىّ آخر . فى مُعْتَقَدى أن هذا الكشف خليق أن يُعِدَّ للبلاد جِيلا جديداً من النساء ، يفوق بمشيته وقوامه فن « هوليود » . . .

وإذا كنتُ قد أجزتُ لنفسى أن أفضىَ به إليك فى رسالة خاصة ، فإنى ليَعِزّ علىّ أن أذيعَه بين الناس قبل تسجيله ،

والاحتفاظِ لنفسى بحقوقه كاملةً غيرَ منقوصة .

يتمثل هـذا الـكشف فى كلمة واحدة ، هى : « البَلّاص » . . .
أو بتعبير الخالدين فى المجمع اللغوىّ : « الجَرَّة » !

أخْشَى أن تُسْرِعَ إلى ثغرك ابتسامةُ السخرية حين تصلُ إلى هذه الفِقْرَةِ من رسالتى ... فبالله عليك ياسيدى أمْسِكْ عليك سخريتَك ، وادَّخِرْ ابتسامتَك لغيرِ هذا الموقف ، واصبرْ علىَّ حتى أُتمَّ لك حديثى .

أنا مؤمن بأن الريفية لم تكتسب قَوامها المَشِيق ، ومشيتها الرياضية ، إلا بفضل « البَلّاص » . . .

هو فى تكوينه الخاصّ ، وطريقةِ حمله على جانبِ الرأس ، ابتكار مصرىّ خالص ، لم يَسبِقْ إليه أحد ، ولم ينافسْ فيه أحد . . . وإنه ليدلّ على عبقرية أهل الريف ، وتجَلّى أذهانهم فيما يعودُ عليهم بالبركة والخير .

اُنظرُ إلى « البلاَّص » فى مكانه من رأسِ حاملته ، تجدْه كأنما هو صَنْجَة ميزان ، عليها يتوقف حُسْنُ الاتزان . . . فالمرأة حين تَحْمِلِ « بَلَّاصها » على هذا النحو إنما تجعل أعضاءها تستجيبُ لمقتضَيات التوازُن فى الحركة والوقوف . ومن ثَمَّ تتَكَيَّف العَضلات ، ويتأثر الجسم كلّه ، بما فيه من شَحْم ولَحْم ، وَفْقَ هذه المُقْتَضَيات .

أتراك تستَرِيبُ بما أقول ؟

عليكَ بأىِّ طالب ميكانيكى يشرحْ لك فى لحظاتٍ نظرياتِ الأوزان والأثقال ، ونظامَ القوة والمقاومة ، وأنواعَ الروافع ، وظواهرَ الميزان الرُّومانى . فلا تلبث أن تؤمنَ معى بما أنا مُفْضٍ به إليك .

« البَلّاص » على الرأس : « مركز استراتيجى » عظيم الشأن ، فى دولة الرَّشاقة . . . فهو إذا اعتلى عرشَه الرفيع ، واستقرَّ فى وضعه المكين ، ألفيتَ الجَسدَ كلَّه قد اتخذ الأُهْبَةَ لِلاستجابة ، وشاعت فيه اليقظة للصيانة والحراسة : القامةُ مستوية ، والهامةُ مرتفعة ، والصدرُ ناهد ، والعَضَل مستوفز . فأما ما قد يكون من فواضلِ الشحم فإنَّه يَتَسرَّب ويَتَسلل ، ولا يلبث أن يتزايل .

وإنك لترى حاملةَ « البَلّاص » وقد اتخذتْ فى سيرها مظهر التخطُّر والتهادِى ، فهى متئدةُ الخطو فى غير تخلُّع ولا تراقُص ، باديةُ المفاتن فى حِشمة وبراءة من الابتذال . . .

أرأيتَ إلى « البَلّاص » كيف هو بالغُ الأثر فى حياةِ صبايا الريف ، وإيفائِهنَّ حظًّا من الرشاقة غير قليل ؟

نصيحتى إلى كل من تَنْشُد الرشاقة والمِشْيَة الجميلة أن تقتنىَ فى منزلها « بَلّاصاً » تمارس به تلك الرياضةَ الجديدة ، فتحمله على رأسها على ذلك الوضع الفنىّ المبتكر .

ولعلى أُوَفَّق قريباً إلى أن يكون لى الفضلُ فى وضع تمرينات مرسومة ، تبصِّرُ نساءكم المدنيات بفنِّ المشية ، رَهْنَ مشيئةِ « البَلّاص » !

حَذَارِ أن تظنَّنى أهزِل فيما خُضْتُ فيه من حديث ، فأنا أقدِّر ما أقولُ حقَّ قدره ، وأُومن به أعمقَ إيمان . وما سوَّغتُ لنفسى أن أجاهرَك به إلا بعد رَوِيَّةٍ وأناة ، وبعد أن وطَّنتُ العزمَ على الهُتافِ بهذا الاِكتشاف ، والعمل على بثِّ تلك الدعوة بشتى وسائل الإعلان .

وإنى ليَد عبُنى أمل فى أن يبلُغَ صوتى أقصَى أنحاء المعمور ، وبخاصةٍ البلادُ الأمريكية ، حيث يقيم الأمريكيون أعظمَ الوزن لأساليب التجميل .

ولعلى موفَّق فيما بعدُ إلى إنشاء مَصْنَع لِصَبّ « البلاليص » المصرية الأصيلة التى هى من طِينَةِ النيل ومن نار الوادى . فأغزو بها أسواقَ الأمم ، وأكْسِب للبلاد غُنْماً تجارِيًّا ليس بالهـيِّن اليسير ، ونخاراً وطنياً ليس وراءه نخار . . . »

هذه هى فكرة صديق « عَزُّوز » كما سجَّلها فى رسالته إلىّ .

وإنى أرى أن الأمرَ أخطر من أن يُعْبَرَ به عُبور الإهمال .

ولعلّ من الخير أن تتألف لجنة قوميّة خطيرة تدْرُس تلك الفكرة ، توطئةً لتأسيس « شركة مساهمة لِصُنْع الجِرارِ المصرية » . . .

وبذلك تتطوّر « بلاليصُ العَسل » فتصبحُ « بلاليصَ الجمال » !

في صَوْمعةِ الذّكْريات

أَغْلَى ما يملكُ الإنسانُ : ذِكْرياتُه !

إنها ذخيرتُه التي يُخْلِد إليها في حياته الوِجْدانية .

بها يطمئنُّ بالُه ، وفي مجالِها يَمْرَح خيالُه . . .

فهي لنفسه أُنْس ، وهي لِرُوحِه مَتاع .

من لا ذِكْرَياتِ له في ماضيه ، كان في حاضره تائهَ الفكر ، شريدَ الوِجْدان !

هذه الذكريات مِرْآة الماضي ، بل زُبْدة مافيه من كائنات وأحداث .

ومِن طبيعة الماضي أن يجلوَ لكَ صفحتَه ناصعةً تَرَى فيها ما هو جميل محبّب ، ولو كان في حِينِه غيرَ محبَّبٍ ولا جميل !

هذا الماضي يحْرِص دائمًا على أن يُرِيَكَ ما سَلَف من شأنك طيّبا رائعا ، وإن كنتَ قد لَقِيتَ من خُطوبه مالَقِيتَ ، وكابدْتَ مِن شرِّه جِسامًا من الأهوال .

لاعجبَ في أن يغدوَ الماضي جميلا ، فهو ذاهب لا أَوْبَةَ له ولا مَرَدَّ ، ولا اتصالَ له بالزمن السائرِ مِنْ بَعْدُ . فنحن نتمثلُ غيبته ، ونأمَنُ جانبَه ، ولذلك نستشعرُ له عاطفةً من الإعزاز والتكريم ، ونجدُ له في أعماق نفوسنا نوازعَ الحَنِين !

إننا فى حاضِرِنا نمحو ما جناه الماضى علينا ، أو قُل إننا نَغفِرِ لهذا الماضى سيئاتِه التى أسْلَفَها إلينا ، فللزمن نار تَصْهَر الأحقاد ، فتصفو النفوس ، ولا تلبث أن تَجْنَح إلى صفح وغفران .

بَيْدَ أن المرء لا يَمْنَح الماضى هذه الهِبَةَ الكريمةَ من المُسالَمَة ، إلا إن استيقنَ أن ذلك الماضىَ لا سبيلَ له إلى الرجوع . فلو توَقَّعَ إيابَه لما تعلّق به ، ولما صبَتْ نفسُه إليه ، ولما غفر له ما قدَّمَتْ يداه من آثام . . .

إذا عاد الماضِى عادت معه سيئاتُه ، تنفُضُ عنها أكفانَها ، وتعلو بهاماتِها ، وتكشف عن أنيابها المسنونة .. وهيهاتَ أن يقع ذلك منا مَوْقِعَ الرِّضا والتَّرْحاب !

ولكننا نؤمن بأن ذلك الماضىَ عهدٌ مضَى وانقضَى ، وأمْسٌ أدبرَ وتَوَلّى . فلا ضَيرَ علينا فى أن نذكُرَه بالخير ، وأن نُولِيَه جانبَ الإشفاق .

ولعلنا نُحِسُّ مَيْلا دفينا إلى أن نعزُوَ المحامدَ إليه ، ونلتمسَ المعاذيرَ له ، ونتفنّنَ فى تسويغ ما ساءنا من تصاريفه ، وتهوينِ ما نابنا من جرائِره .

ما دام الماضى قد انقطع عنا ، فهو حقيقٌ منا بأن نُسْبِلَ على ذنوبه أستارَ المغفرة !

وما دام الماضِى غيرَ عائد إلينا ، فهو خليق منا بأن نطوىَ له نفوسنا على تعلّق وحنين !

وإن التَّذْكارات المادِّية لهى أقوى أركان الماضى وأقوم دعائمه . فهى

تثير الذكريات من مَرَاقدها، وهى تجسِّمها وتبعَثُ الحياةَ فيها على نحو شائق مُسْتَعْذَب .

ولقد عرف الناس لهذه التَّذْكارات أثرَها البالغ ، فكلُّ امرئٍ منا يُقبل عليها قلَّتْ أو كثرت ، ويَعْتَزُّ بها غلَتْ أو رَخُصَتْ ، ويستكثر منها ما وَسِعَه أن يستكثر . . .

وليست تُقَوَّم هذه التَّذْكارات بما تُقَوَّم به الأشياء فى سوق الحياة . فإن تقويمها إنما يكون بما تثير من ذِكرى ، وما توحِى به من حال . فقد يكون التَّذْكار صورةً على أىّ نحو ، وقد يكون طُرْفة فى أىّ مظهر ، وقد يكون قُصاصةً من ورق ، أو بقيةً من قلم ، أو مادون ذلك من عامة الأدوات والأشياء .

ورُبَّ تذْكار هو أهون ما يملك المرء من طُرَف وتُحَف ، كان هو الفائز بالنصيب الأوفر من الإعزاز . بل لقد يبلغ عند صاحبه مبلغ التقديس . فلو بَذَلْتَ له أغْلَى ما فى الدنيا من النفائس بَدَلاً منه ، لما نزل عنه ، ولما رَضِىَ به بَديلا .

وأنا معترف بأنى أحد أولئك الذين يخصُّون الماضى وذكرياته بالحظ العظيم من التقدير والاهتمام ، وأنى لا آلُو جُهْدًا فى الاِحتفاظ لنفسى بما يبعث هذا الماضى ، ويثير ما فيه من ذكريات.

فى صومعتى التى أخلو فيها إلى كتبى وأقلامى وأوراقى شُكول من الآثار والتَّذْكارات ، لكلٍّ منها فى قلبى مكانته . والكثير منها جَمَعْتُ شتَاتَه من مختلِف الأصقاع التى كنتُ أجوزُ بها لمحضِ الزيارة أو للاِستشفاء

تلك الآثار والتذكارات تمثل أطوارا متعددة من حياتي الخاصة . . .

وإنى لتقع نظراتى عليها فى حُجْرة مكتبي الضَّيِّقة ، فيخيّلُ إلىَّ أنها تختزل العهود ، وتختصر الأزمان ، وتُدَانِي بين الأصقاع ؛ وأنها ترينى ذلك كله مضغوطاً مُدْمجاً ، يبعثُ الماضى أمام عينى حيًّا فى أية ساعة أريد .

ما أقربَها شَبهاً بتلك البلُّورة التى تستطيع أن تَلُمَّ ما تَشَعَّثَ من شعاع الشمس ، فترْكُزه فى مكان محدود ، هو مُلتَقى النور .

تحيط بى هذه الآثار والتَّذْكارات ، فكأنى أستعيد رحلاتى الغابرة فى عالَم الماضى قريبِهِ وبعيدِهِ ، وأجدنى أسِيحُ فيه على نحو جديد . لأنى أتصوَّره بعين اليوم الراهن ، وأنتقل إليه على أجنحة من خيال الحاضر !

وإن هذه الرّحلات التى أقوم بها وأنا ساكن فى صومعتى ، لهى أطيب رحلاتى وأوفرها دَعَةً وطمأنينة ، فقد بَرِئَتْ من التكاليف وسلمتْ من المَشاقّ .

لا حقائبَ متاعٍ تُعَبَّأ ، ولا جوازاتِ سفر تُهَيَّأ ، ولا بحارَ أخوضُ غمرَاتها على كُرْه ، ولا مَرْكبَات أتنقَّل بها غيرَ آمِن !

لقد أَلِفْتُ هذه الرحلات الوادعة ، وطابت بها نفسى . فأنا أوثرها كلما خلوْتُ إلى مكتبى ، لأُطالعَ ، أو لِأُجْرِىَ القلم . . .

وأشعر دائما بأنى أجدّد بهذه الرحلات حياتى الراتبة ، وأُذْهِب بها ما يعترينى من سأم ، وأبثُّ بين جوانحى رُوحاً من الحركة والطَّواف .

بارك الله فى تلك الآثار والتَّذْكارات :

سَجِينَةٌ ، ولكنها تثيرُ الانطلاق !

مُقِيمةٌ ، ولكنها أبداً على سفَر !

ثلاثة تماثيل

من عجيب ما يشعرُ به الإنسان من شأنه ، أنه قد تجمعُه بنوع من الجمادات جامعةٌ من صحبة ، أو مشاركة فى عمل ، فإذا الإنسان يكاد يُحِسُّ فى هذا الجماد خفقةَ الحياة ، ويأنسُ فيه صِبغتها الرفّافة ، وإذا هو على مدّ الأيام يجد لهذا الجماد فى نفسه من وشائج الألفة والودّ ما يجدُ للكائن الحيّ .

إنك تُعايشُ ذلك الجماد الذى تَعُدُّه فاقداً للحركة والحسّ ، فلا تلبثُ على غير تكلفٍ منك أن تستجليَ فيه شِيَماً وشمائلَ تختصُّ به . شأنُه فى ذلك شأنُ من تُعايشُ من الأحياء .

هذا الجماد شائق ، خفيفٌ ظِله . وذاك ثقيل تنقبضُ منه نفسُك ، ولا تُطيقُ له مَرْآى . . .

هـذا يبدو كأنما هو ثرثار مَمْلُول . وذاك يرُوعك دائماً بصمت مَهِيب ، ووقارٍ كريم . . .

هذا تراه خبيثاً خدّاعاً ، كأنما يمكُر بك ، ويطوى أحناءه على ضغينة وإيذاء . وذاك يلاقيك صَفِيًّا نقيًّا ، كأنه صديق خالصُ الودِّ مِسْماح .

لا يُعميك أن تجدَ بين عامة الناس من يتوقّد إحساسُه نحو الجماد ، فيستشعر له ألواناً من العواطف متغايرة بين كراهة وإيثار . وإنك لتراه

يؤثر أو يجفو بيتاً يسكُنه ، أو ثوباً يكتسيه ، أو مصباحاً يستضىء به ، إلى غيرِ ذلك مما يصطنعه فى مرافق العيش من أدواتٍ وأسباب .

وليس بِدْعاً أن يكون الفنانون على وجهٍ عامّ ، أشدَّ الناس توَقُّدَ إحساس بما للجماد من كيان . فهم بما أُوتوا من رهافة حسّ وذكاء شعور لا يفوتهم أن يأْنَسُوا دَبِيبَ الحياة فيما دقَّ وجَلَّ من رِحاب الكون الفِسَاح ، وأن يتلمَّسوا أشتاتَ المَلامِحِ والأشباه فى كل ما تقع عليه أنظارُهم من خَلْق الله !

وربما كان « قلَمُ الكاتب » أيسرَ مثل نضربه . . . فيه يَتَبَدَّى ذلك الضَّرْبُ من إحساس الفنان بالجماد . فقد تتوثقُ الأُلفةُ بين الكاتب وقلمه ، فلا يبغى بديلاً به ، وإن بَلِيَ فى يده ، وإن تَسَنَّى له أن يتعوَّضَ منه قَلَماً أقدرَ على عَوْنِه .

إن الكاتب ليكاد يُقْسِم غيرَ حانث بأن هذا القلم هو الذى يُمِدُّهُ بأفكاره ، وكأنه جوادُه المدرَّب ، يجرى به طيِّعا لا يجمَحُ ولا يتأبَّى . وأما ذلك القلم الآخر فإنه وإن كان فى حسابِ غيره أثمنَ وأمتنَ ، فهو عنده فرَسٌ حَرُون ، لا تؤْتيه عَوْناً ، ولا تُغْنِيه شيئاً .

لا شَطَطَ فى القول بأننا نعيشُ بين هذه الجمادات كأننا نعيش بين أحياء !

لك أن تعلِّلَ ذلك بما ينشأ بيننا وبين هذا الجماد من أُلفة . . .

ولغيرك أن يَرُدَّ العلةَ فى ذلك إلى أن المرء يُفِيضُ من خياله على الجماد ، فيُضفى عليه الحياة ، أو مَسْحَةَ الحياة !

ولكن يلوح لى أن الأمر أبعدُ من هذا مَدَى . . .

ألا يكون هناك شيء آخر، لا نُدْرِك له كُنْهاً على وجه التحقيق، هو الذى يَمْنَح الجماد مَظْهَرَ الحياة، فيجعل له شخصية تميِّزه وتدعو إلى إيثاره؟

دَعْنِي من رأى الأقدمين فيما تواضعوا عليه من تعيين الفارق بين الحىِّ والجامد . . .

بل دعني من ذلك التحديد العتيق لمعنى الحياة نفسِها .

لقد أرادونا دَهْرًا على أن نؤمنَ بأن كل شيء ينمو ويتحرَّك بذاته ويتصرف فى شأنه فذلك هو الشيءُ الحىّ . . وأن كل شيء فاقدِ النموّ النمو، ساكنٍ بذاته، لغير سببٍ عارض، فقد حُرِمَ حقيقةَ الحياة

فى طوقِكَ الآنَ أن تقول بأن هذا الرأى قد أصبَح غيرَ حىّ!.

لقد رجع العلم يستأنف النظرَ فيما كان مُقَرَّرًا من الفوارق بين الأحياء والجمادات، وهو اليوم ينادى بالشكّ فيما يمكن أن يُسمَّى بالجماد . . . لقد اكْتنَهَ العلم فى هذا الجماد الذى لا ينمو ولا يتحرك، أسرارًا تُدْنِيه من مرتبة الحياة، وتُذْهِبُ عنه كثيرا ممـا كان بينه وبين الأحياء من فروق .

أين « نقطةُ البَدْء » فى الحَيِّ ؟

أليست هذه النقطةُ تبدأُ فى أغوارِ الجماد ؟

أليس هناك إذن تشابك وتداخل بين الحىِّ والجامد، وإن كان واهنا، أو حَسِبْنَاه غيرَ ملموس ؟

ثَمَّةَ صلة وثيقة بين الأحياء والجمادات، وإن هذه الصلة لتجعلهما فى صعيد واحد، ينبسط عليهما حكم واحد . . .

ألستَ ترى العلمَ اليومَ يزاول تفسيرَ ذلك التماثُلِ أو التقارب على أساس القوة الكهربيَّة فى بناء المادةِ حيةً كانت أو جامدة ؟ .

أليس العلمَ قد انتهى إلى أن « الذَّرَّة » هى جوهر الموجودات ، وما هذه « الذرة » إلا نظام كهربىّ ، يماثل فى حركته نظامَ الأفلاك ؟ .

هى قوة خفية يطلق عليها العلم فى هذا العصر اسم القوة الكهربية ، ولا عليكَ من أن تقول بأنها هى التى يطلق عليها الصوفيُّون اسم « الرُّوح » . . .

هذه القوة الكهربية ، أو هذه القَبْسَة الرُّوحية ، هى ذلك التيار السارى فى بِنْيَةِ الوجود كله . هى ذلك الرِّباط الذى يصل بين أجزاء الكون عَاليهِ ودَانيهِ . هى ذلك النَّسَب الوثيق بين ما هو على ظهر الأرض المبسوط وما هو فى بطنِهَا الغائر ، لا فرقَ بين أطباقِ السماء ، وأعماقِ الماء !

تلك القوة وَحدةٌ لا انفصامَ لها ، وَحْدة يندمج فيها كل شىء ، ويحيا بها كل شىء ، وليست هى إلا تلك النفحة العُلْوِيَّة التى هى قَبْسَةٌ من نور الله !

عندى أن هذه القوة هى التى تَنْفُخ من رُوحها فى هذه الجمادات ، فَتُحيلُها شخصيَّاتٍ حَيَّة ، وتجعل بيننا وبينها مودّة وأُلْفة ، فإذا هى أحياء نطارحُها العواطفَ والمشاعر ، ونحسُّ لها ما نحسُّ للكائن الحىِّ من حبٍّ أو كراهية .

شدَّ ما تتبادر إلى ذهنى هذه الخواطر ، كلما أشرفتُ على تلك التماثيل

الثلاثة ، وهى تَتَبوّأ مقاعدَها من حجرة مكتبى ، فأناجيها وتناجينى .

لقد كان لكل تمثال منها مناسبة جاءتْ به ، فهى تثير فى نفسى ضروباً من التّذْكار . ولكنها جميعاً أصبحتْ لى من صفوة الأصدقاء ، أَعشَقها إذا غبتُ عنها ، وأتفقدُها إذا حَلَلْتُ مكانَها .

تماثيل ثلاثة . . .

لا أُنْكِرُ أنها من الجماد ، ولكنى أراها من الجماد النابضِ الحىّ .

أولها : تمثال للشيطان ، سَمْهَرِىّ القد ، مسنونُ الوجه ، وَضّاح القسمات ، كأنه فى احمراره جمرة تتضرّم . وقد أهدى إلى رَبيبته : « بنت الشيطان » .

وثانيها : تمثال ذلك الفرعونىّ فى جلسته الصخريّة الجاسية ، يُخَيِّلُ إليك أنه يستمرئ جلسة الأبد ، لا نَأْمَةَ ولا حَراكَ . وكأنه حِيالكَ مستودَعُ أسرار عميقة يَخشَى عليها أن تُذاع . . . ولقد منحنى فى صمته ورزانته مِنحته المتواضعة : « فرعون الصغير » .

أما ثالثُ التماثيل ، فهو شيخ أعجَفُ ، تجرّدَ إلا من مِزَقٍ مهلهَلة ، وتجلتْ عليه سِيَما الضراعة . يَمُدُّ يد السؤال بلا مَلال ، ولا يفتأ يستقبلنى بكلمة : « إحسان لله » . . . فأوحتْ إلىّ كلمتُه الواحدةُ قصةً كانت عُنْوانَ كِتاب .

وهاهى ذى ثلاثةُ التماثيل ، تأبَى إلا أن تشترِكَ جميعاً فى الإيحاء إلىّ بهذه السطور !

وَسَائِل الإلْهَام

يَجْلِسُ الكاتبُ إلى مكتبه، والقلمُ طَوْعُ يمينه، لا يَدْرِى أحيانا فى أىِّ موضوع يكتب، فإن كان الموضوعُ نُصْبَ عينيه، فربما عَزَّ عليه أن يتمثَّلَ الأفكارَ والخواطرَ التى تَدْعَم موضوعه، وتُخْرِجُه فى إطار فنِّىٍّ شائق.

وما هى إلا أن يَرَى نفسَه مَسُوقاً إلى الإملاء، يَمْضِى بقلمه أو يَمْضِى به القلمُ لا يَلْوِى ولا يَتَعَثَّر. وإذا بأفكار وخواطر تَنْثَال عليه وتَنْهَال، حتى لا يستطيع لها إمساكا إلا بِجُهْد، وحتى يَنْضُبَ قلمُه قبل أن يَغِيضَ من القريحة فَيْضُها الهَتُون.

ذلك هو ما نسمِّيه «الإلهام»، وذلك ما حَيَّرَ الإنسانَ منذ غابر الزمان.

لقد طالت الحيرةُ فى تعليل هذا الإلهام وتأويله، فلم يجد العرب القُدَامَى بُدًّا من السُّمُوِّ به فوق طاقة البشر، وراحوا يَعْزُون إلهامَ الشعراء إلى قُوًى خفيَّة لا تنالها العيون، فتخيَّلُوا لكل شاعر تابعاً من الجنِّ، هو شيطانُه، وهو مَنْبَعُ إلهامه...

وما كان بِدْعاً أن يتجه العرب هذه الوِجْهَة فى تفسير الإلهام،

فقد حار الأقدمون من الإغريق حيرةَ العرب فى البادية ، فاتخذوا للشعر إلٰهة تَمْنح الشعراء روائعَ القصيد .

ولقد ظل الإنسان فى هـذه الحيرة من أمر الإلهام ، يذهب فيه مذاهبَ شتى ، ولـكنه على أية حال لايَحْسَبه إلا باعثاً خارجياً يَهْبِط على الأذهان مَهْبِطَ الغيث ، فيحيي من هامدِها ما يُحْيِي الماء من الأرضِ المَوَات .

بَيْدَ أن العصر الحديث ، عصر الـكشف والتعرّف ، عصر التحليل والتعليل ، أرسل العلم رائداً يستجلى خبايا النفس ، ويُفْصِحُ عن سرِّ الإلهام . . .

وهذا العلم الجديد ينادى — فى ضوء التحليل النفسىّ — بأن الإلهام ليس إلا قوةَ العقل الباطن . ينكشف عنها الغطاء ، فتَمْضِى فى تدفُّق وانطلاق .

ومما يسوقهُ العلم من شواهده ، أن كثرةً من المفـكرين الفنانين فى مختلف النواحى ، يعرضُ لهم من العقبات ما يتَعاصَى ، ولا يَجِدُون لمشكلاتهم من حلول ميسورة ، حتى إذا ملك النومُ عيونَهم ، تَسَنَّى لهم أن يتَخَطوْا العقبات ، ويتصيَّدوا أيسرَ الحلول ، فى عالمِ الأحلام . . .

ولو تدبرتَ هذا التفسير العلمىّ للإلهام ، لألفيتَه قريباً من تخيُّل العرب لشياطين الشعراء . فالعرب كانوا يتمثلون الشاعرَ وقد حَلَّ الشيطان فى نفسه ، وتلبَّسَ به ، ليُلْهِمَه ويوحى إليه . وماهذا الشيطان إلا ذلك العقل الباطن الذى يختزن الأفانينَ من النزعات والشهوات ومُعقِّبَاتِ الأحداث .

على أن العقل الباطن لا يكشف عن مكنونه ، ولا يُفضى بأسراره ، إلا إذا عَمِلَ الفنَّان على أن يَحُدَّ من سلطانِ عقله الواعى ، حتى تأنَسَ الأفكار الحبيسةُ بأضواء الحرّية ، فتنطلقَ من قيودها الثقيلة ، على حينِ غفلةٍ من ذلك الرقيبِ العَتِيد .

فإذا جلس الكاتب لِيُمْلِيَ على قلمه فَيْضَ قريحته ، فلا بُدَّ له أن يتعثَ الإلهام من مَرْقَدِه ، لا بدَّ له أن يبتغىَ الوسيلةَ التى تُنيمُ عقله الواعى ، أو تكفكفُ من غُلَوَائه ، حتى يظفرَ بما نلقبُه : الخَلْوَة ، أو الغيبوبة ، أو ساعةَ الصَّفاء !

ولقد تعَوَّد بعضُ الكتاب أن يتذرَّعوا ببعض الوسائل لاجتلاب تلك الغيبوبة المنشودة ، فكأنَّ هذه الوسائل « جوازُ مرور » للعقل الباطن . . .

ولَشَدَّ ما تختلف وسائل الكُتَّاب فى بلوغ تلك الغاية ، ولعلّ أكثرها شيوعاً تلك الأشياء التى هى جديرة بأن يطلق عليها اسم « المُنوِّمات » . فمن موسيقَى يستمع الفنان إليها ، إلى صورٍ خاصة يتملَّاها ، إلى عطر مختار يَتَنَسَّمه ، إلى شراب أثيرٍ عنده يَتَرَشَّفه ، إلى غير ذلك من الأشياء التى يطمئنُّ بها العقل الباطن إلى أن حارسَه الساهرَ « العقلَ الواعِيَ » قد أخذتْهُ إغفاءة !

فإن جاز لى أن أعُدَّ نفسى بين من يستثيرون الإلهام من مكامِنِه ، ويتودَّدون إليه ، ويتخذون بعضَ الوسائل فى حمايته من أسبابِ القلق والاضطراب ، فإنى أذكر أربعةَ أشياء ، أَلِفْتُ أن أجعلها قريبةً منى

حين أتناولُ القلمَ ، لتكون « خطَّ دفاع » تُعين الخواطر والأفكار على أن تكونَ طليقةً فى نحويها ، آمنةً فى سِرْبها ، لا تُفزِّعُها الطوارئُ والعادِيَات . هذه الأشياء ، هى :

قَدَح قهوة ، ولِفَافَة تبغ ، وسُبْحَة ، وزجاجة « نشادر » !

يقول لى قَدَحُ القهوة :

لا تَخْشَ خمودَ ذهنك ، فإنى رَهنُ بنانك ، أَمُدُّكَ بما يُعْوِزُكَ . حسبُك رشفةٌ من رحيق تطوفُ بك فى آفاقٍ رِحَاب .

وينتفشُ من لِفافة التبغ دُخانها العَطِر ، فيناجينى بقوله :

لاعليكَ من اضطراب أعصابك ، فإن جَذْبةً واحدة منى تَرُدُّ إليك ما عَزَبَ من طُمأنينتك .

وتدنُو من يدى حَبَّاتُ السُّبْحة الطَّيِّعة ، هامسةً بقولها :

إن فى مُعابَثَتِكَ لى مهادَنةً لحربِ أفكارك . فلتأنسْ إلىَّ فى الفينة بعد الفينة ، أداعب أناملك فى غير جلبة ولا صخب ، وأهبكَ لحظة راحة وجَمَام .

فأما زجاجة « النشادر » فهى الدَّيْدبان اليَقْظان ، لا تكاد تَشْعُر بما أعانيه من جَهْد وإرهاق ، حتى تبادرَ إلىَّ فى رِفقٍ وَدَعة ، فتَنْعشنى بطيبِ أنفاسِها الرِّقاق ، ولا تَدَعَنِى حتى أَصِيرَ إلى أَمْنٍ وسَلام .

أوَلُ لقـاء

كان أولُ لقائى إيَّاها فى رِحَاب الصحراء ، عن كَثَبٍ من « مِصرَ الجديدة » .

لم أكنْ قد تعرفتُ بها بعدُ ، وإن كنتُ قد شاهدتُها من قبلُ ، وعلمتُ من أخبارها كلَّ رائع طريف .

من ذا الذى يجهلُها ؟

من ذا الذى لم يقعْ بصرُه عليها ؟

من ذا الذى لا يُعْجَب بها ، ولا يشعر نحوَها بفيض من الروعة السِّحر؟

إنها مِلْءُ الأعين ، مِلْءُ المسامع .

كلُّنا لها عاشقٌ خاطبُ وُدّ ، ولـكننا على الرغم من ذلك نحاذر ونتحرَّز ، لما نُحِسُّ لها من تَهَيُّب ورهبة .

ليست هى بالطيِّعة الذَّلول ، فمصاحَبَتُها محفوفةٌ بالمَخَاطِر ، ولـكنها مخاطر شائقة تثير فى النفس الجَسَارة والإقدام ، وتُلْهب بين الجوانح نَزْعة الغَلَبة والظفر .

وإنَّ صَداقتها لتـكشِفُ للمرء عوالم جديدة تَزْخَر بألوان من الروائع .

وكان منى أن جرُؤْتُ فرغبتُ إلى بعضِ ذَوِيها فى أن يهيِّئ لى موعدًا أحْظَى فيه منها بأول لقاء .

وكرَّت الأيام لا تُنيلنى طَلِبَتِى ، حتى سَلَوْتُ عنها ، أو تصنَّعْت أنى سلَوْت . . .

وأسفر صُبْحُ يوم يحمل إلىَّ بُشْرَى اللقاء المنشود ، فانتظمنى شعور هو مِزَاجٌ من خَشْية واغتباط .

وتأهبتُ لهٰذا اللقاء ما وَسِعَنِى التأهُّب .

وكان الموعدُ رائعًا فى مكانه وزمانه :

ساحة الصحراء الرَّحْبَة ، قُبَيْلَ مَطْلَعِ الفجر . . .

يا له من لقاء عاطفىّ خَلَّاب !

أمضيتُ نهارى جيَّاش الخاطر ، تلعب بى الهواجس كلَّ ملعَب .

فَسَخِرْتُ من نفسى :

فِيمَ هذا كلُّه ؟

حقًّا إن صداقتى بها لمغامرة أيَّة مغامرة ، ولكن يجب علىَّ أن أُقْبِل على هذه المغامرة فى جسارة وتشجُّع !

بلغتُ المكان فى الموعد المضروب ، فألفيتُها فى الِانتظار ، وما إن أخذها بصرى حتى عرَتْنى رِعشة تَزَايل أمامها عتادى من قوة العزيمة ورباطة الجأش .

ومَثَلْتُ على مقربة منها أُواجهُها ، وبى من الحيرة والرهبة ما لم أستطعْ له دفعا .

لقد كانت قُبالتى تتألّق فى الفضاء الطَّلْق ، كأنها الكوكبُ الوهّاج فى ظلمة الليل .

كانت فى رِدائها الفِضّىّ تتوهّج ، كأنما هى إلهة من آلهةِ الأساطير .

وقفتُ أتوسّمها خاشعا ، تتنازعنى مشاعرُ الشغف والاِستحياء .

لا أنا بقانع منها بتلك النظرة المجرّدة ، ولا أنا بقادرٍ على أن أخطوَ إليها أُبثُّها الشوقَ والحَنين .

وقفتُ أتأمّلُها مَلِيًّا أحاول أن أستَشِفَّ من مَرْآها ما تنطوِى عليه نفسها من أسرار ، وما تُكِنه من أقدار . . .

كلما أنعمتُ النظر فيها أحسستُ قوةً تجتذبنى إليها ، قوة مِغْنطيسية تَشِعُّ من كيانها ، محيطةً بى ، لا أستطيعُ منها الفِكاك .

ها هى ذى المغامرةُ قد بدأَتْ واستبانتْ بوادِرُها .

خُيِّلَ إلى أن ابتسامةً وضّاحةً تتخايل على ثغرِها .

أهى ابتسامةُ انتصار أم هى ابتسامة إشفاق أم هى ابتسامةُ إزْراء ؟

وقع فى رُوعِى أنى أسمع همهمةً منها .

أشرعتْ تتكلم ؟ . . .

أرهفتُ السمع مُهتاجَ الفؤاد ، وتَجلَّى لى أن ثَمَّةَ صوتًا ما أقربه شَبَهًا بوسوسة الزهر يتفتّحُ للطَّلِّ .

كأنما سمعتُها تقول :

حتى متى وقوفُك ؟

واختلجتْ شفتاى أقول :

لستُ أدرى !

— ألم ترغبْ فى صداقتى ؟

— إنى فى هذه اللحظة أشَدُّ رغبة !

— إذن تقدمْ وكن جَسورا . ما فتىء الناس يُذِيعُونَ عنى ما ينفثُ الرعبَ فى القلوب ، وما زالوا يزْعُمون أنى أرمى بهم فى مَهالِكَ .

— ما أحْلاها من مَهالك !

— إنى مُصْطَحِبَتُك إلى مجهولٍ قصِىٍّ ، قد لا تطيبُ به نفسا

— حسْبى أنكِ رائدتى إليه . . شدَّ ما أنا شيِّق إلى اكتناهِ هذا المجهولِ فى صُحْبَتِك !

— أسرِعْ إذن إلىَّ قبل أن يبدِّدَ الفجرُ متعةَ هذا اللقاء ، وتُذِيعَ أشعةُ الشمس سِرَّ تلك المناجاة !

وبسطتْ ذراعيها الوضَّاءَتيْن لى ، فألفيتُنى مُقبلاً عليها ، مرتميًا فى حِضْنِها ، كما يُقْبِلُ الفرْخُ على حِضْنِ أمه يلتمسُ الدِّفْءَ والحَنان !

فَطَوَّقتنى بذراعيها الفضيّتين فى تَرَفُّق وحنوّ ، وما هى إلا أن أحسستُ بها تعلو بى عن أديمِ الأرض ، وإذا بها تمضى بى صُعُدًا تَشُقُّ أجوازَ الفضاء ، وهى تطلق فى السماء دَوِىَّ الظفر والِانتصار .

ذلك كان أولَ لقاءٍ بينى وبين صديقتى . . . « الطائرة » فى رحلتى الأولى إلى العالم الجديد !

أَحَبُّ العَاشِقِين إِلَيَّ

سُئِلْتُ يوْماً :

مَن أَحبُّ العاشقين إليَّ ؟

وقد دعانى ذلك إلى أن أُجِيلَ الطَّرْفَ فى ذلك الحَشْد الزاخِرِ ممن هَتَفَ بأسمائهم التاريخ ، وسجَّل روائعَ غرامهم بين صحائفه الخالدات . . .

فهنالك « روميو » الذى يمثل المَأْساةَ الدامية فى الحبّ ، والذى يُعَدُّ أرْوعَ مَثَلٍ للفداء .

وهنا « قَيْسٌ » صاحبُ « ليلىٰ » الذى يمثل العشقَ العُذْرِىَّ ، أو الحبَّ المجنون .

وثَمَّةَ « أنطونيو » ذلك الذى كان أحْرَصَ ما يكون على الاِعتصار والاِستمتاع ، ما وَجَدَ إلى ذلك السبيل .

وهل نَنْسَى « عُمَرَ بنَ أَبِى ربيعةَ » الذى يمثل الحبَّ الثرثار ، يَنْشُدُ فيه طَيْفَ المرأةِ أيةً كانت ؟

وفى التاريخ قريبِه وبعيدِه شُكول وأفانين من العُشَّاق والمحبِّين ، يختلفون فى شخصياتهم ، ويتباينون فى مَهْوَى أفئدتهم .

فأىُّ هؤلاء أحقُّ بالإيثار ؟ وأيُّهم أولَى بالإشادة والإعلاء ؟

من منهم أجْدَرُ بأن يتسلَّمَ رايةَ البطولة فى مَيدان الآهات والزَّفَرات ؟

جعلتُ أعْرِض الأسماء ، وأتعرَّف الشخصيَّات ، وأتسمَّعُ المناجيات . وبغتةً وقفتُ . . .

فقد تخايلَ لى شَبَحٌ جبَّارُ القامة ، قَوِىُّ العضل ، وافِى الجُسْمان . ولقد راح يتقدَّم منى متزنَ الخطا ، عليه سِيماء الترفُّع والعزة ، تتراءى منه جبهة عريضة تتدلَّى عليها خُصُلَات شعرٍ أسْحَمَ غزير . . . فراعنى منه أنه عارِى الجسد ، إلا من جلودٍ تَسْتُر بعضَ أوصاله !

لاحَ لى هذا الشَّبَح الجبار الكريمُ العنصر ، وعلى وجهه ابتسامة . وجعل يَبْعَث إلىَّ نظراتِه ، وهو يعبثُ بلحيته المُشَذَّبَة ، كأنه يقول لى :

أين مكانى بين من تخَيَّرْتَ من صفْوَةِ العشَّاق ؟

حقًّا لستُ أدرى كيف فاتَنى أن أذكُرَه . . . وهو البطل الأوَّل ، والزعيم المقدَّم ، لا دِفاعَ ولا نِزاعَ ؟

إنه فرْدٌ فذٌّ ، يَعْدِلُ بقصةِ غرامه ألوفَ المغرَمين على تعاقُبِ الأحقاب !

إنهم حين يُوزَنُون به يَبْدُون أقزاماً ضِئالاً ، هيهاتَ أن يقومَ لهم حساب بجانب عِمْلَاقِ العماليق !

وكيف لا يكونَ ذلكَ وهو الرأس ، وهمُ الأذناب ؟

وكيف يقوم فى ذلك خلاف وهو الجِذْع الركين ، وهم الأفنانُ المهازيل ؟ !

هو الرائد السبّاق . . .

هو واضع أسِّ الحبِّ لبنى البشر . . .

هو مَنْ شرَعَ ذلك الشَّرْع ، وسنَّ ذلك القانون . . .

هو مَنْ عبَّدَ الطريقَ لكل سالِكٍ بعده ، متأثِّرٌ خُطاه . . .

هو الذى تلاقَتْ فى قلبه كلُّ أفانين الحب ، من عُذرِىّ ، وصوفىّ ، وجسَدِىّ . . .

هو الذى بذل فى سبيل حُبِّه أكبرَ فِداءٍ لايملك أن يبذله غيره . . .

لولا حُبُّهُ هذا لما كان للبشرية كِيان !

لقد أحبَّ فى دنياه الصغيرة التى لم تكن تحْوِى إلا قلبَيْن اثنين ، نخلق من هذه الدنيا المحدودةِ عالمًا رحيبَ الأكناف يزْخَر بألوف المحبين !

لكأنه قد أراد أن يجعل الحبَّ حقيقة خالدة يتوارثها خالف عن سالف ، فألقى الغِراس ، وَبذَرَ الحَبَّ ، وأحسنَ السُّقيا . وظلّ يتعهَّدُ الزَّرْع حتى نَما واكتمل ، وآتى أُكُلَه ، ومازال يُؤْتيه طيِّبَ الثمرات .

ربما كان فى ذلك على خطأ ، وربما كان على صواب .

مهما يكنْ من رأى ، فما كان فى وُسْعِه أن يَعْدُوَ ما فعل . . .

وهل كان فى مُستَطاعه أن يتطهَّر من شوائب الخطيئة ، وهو ابنُ طِينٍ وماء ؟!

مايَسُوغ لى الآن ، وقد وَضَحَ لى ذلك الوجهُ الكريم ، إلا أن أجعَله هو موقعَ الاختيار .

ذلك الذى باعَ النعيمَ العُلْوِىَّ ، سَعْياً إلى اكتناهِ سرِّ الحياة الأزلية على ظهر هذه الأرض .

ذلك الذى هو صاحبُ التجربة الأولى فى الحبِّ ، وصاحب القِدْحِ المُعَلَّى فى الفِدَاء .

ذلك هو أبو البشر : « آدم » !

غَفَرَ اللهُ له ، وأعانَنَا على احتمالِ ما تَرَكَه لنا من ذلك التُّرَاثِ الخالد الجسيم . . .

أَنْتَ فِى نَفْسِكَ دَوْلَة

قد تكون ممن يستهوى نفوسهم رفيعُ المَنْصِب، ويختلبُ أنظارَهم بريقُ الجاه، فتحلمُ أن تكونَ وزيراً .. أن تكونَ لك تلك المكانةُ المرموقةُ التى ما زالتْ تَظْفَر بأسمى الاعتبار.

ولكن يفوتُك دَسْتُ الوزارة، فلا تلبثُ أن تذهبَ نفسُك حسرةً على ما فاتك، وتَعضَّ بنانَ الندم على تقصيرِك فى التحيُّل والتوسُّل لبلوغ هذه المأرَبة.

وربما حابَيْتَ نفسك، وترفعتَ بها عن اللوم والتعنيف. فانبريتَ تَصُبُّ على القَدَر جامَ غضبك، وتُنْزِلُ به جاحِمَ ثورتك. ترَى أنه قد مَكَرَ بك، وكاد لك، فحرَمَكَ أن تتبوَّأَ هذا المَنْصِبَ الخطير، لتأمُرَ وتَنْهى، وتُعِزَّ وتُذِلَّ، وتستمتع بأن تُبَرْقش الأوراقَ بإمضائك الكريم، وتتلقَّى من أعوانك ووفود بابك ألوانَ التحايا والحفاوات، ومن حاشيتك وأحراسِكَ ضروبَ التبجيل والإعظام. يزْحَمُونَك بذلك كله، كلما انثنيتَ انثناءة، أو أومأتَ إيماءة!

فيا صاحبى:

لا عليكَ .. ليس فى الأمر ما يستوجبُ التحسُّر، فإنى كاشفٌ لك

الغطاء عن شيء غاب عنك ، أو سهوتَ عنه ، وأنتَ واجدٌ فيه ماتَحْلم به ، وتَطْمَح إليه . وهو منك على مَقْرَبَة ، بل إنه موصول بك أوثقَ صلة ، فما هو إلا حقيقة واقعة تمارسها فى حياتك ، وإن لم تكنْ منها على عِلْم .

أنا زعيم لك بأنك مستمتعٌ بالمَنْصِب الوِزارىِّ فى أوسعِ نطاق . فأنت لستَ صاحبَ وزارة واحدة ، وإنما أنتَ تهيمنُ على وزاراتٍ شتى ليستْ أهونَ شأنا من تلك التى تراها قائمةً فى نظام الحكم .

أمَا دار بخاطرك أنكَ أنتَ فى نفسِكَ دولة . . . دولةٌ مستقلة ذاتُ سيادة ؟

أمَا فكرتَ فى نفسك : كيف أن الله أوْدعَكَ من القُوَى الظاهرة والباطنة ما يجعل منك حكومةً قائمة ، لها كلُّ خصائص الحكومات فى كُبْرى الدول ؟

أنتَ مملكةٌ ! . . . وما رأسُك إلا دِيوَانُ الحكْمِ ، فيه تلتقى شتى الوزارات . والفارقُ بينك وبين حكومات الأمم أن مجلسَ الوزراء فيها غيرُ وطيد الدعائم ، فإنه لتَعْصِفُ به الرِّيح بين عشيّة وضحاها ، طَوْعًا لتقلبات السياسة ، وطوارئ الأحداث . على حينِ أن مجلسَ وزرائك دائم وثيق : وُلِدَ معك ، ونَمَا فى ظلك ، وسيُلازِمُكَ ما حَيِيتَ !

تبصَّرْ فى أمرك قليلا ، يتبينْ لك أنى لا ألْغُو ، ولا أغْلُو . . . وأنك ذو مملكة عريضةُ الجنبات ، معقّدة المَرافِق . ليس فى طوقك أن تَسْتَكْنِه دقائقها إلا إن استعنْتَ على ذلك بِمِجْهَرٍ يجلو من الأشياء ما تناهَى فى الصِّغر . . ولعل أكبرَ مِجْهرٍ يَعْيَا بأن يُرِيَكَ ما كَمَنَ من

الدقائق فى أعماق مملكتك البعيدة الأغوار !

أنتَ فى حقيقة نفسِكَ كَوْنٌ عجيب ، لم يُكْشَفْ منه إلا أهْوَنُ ما فيه . . . فأما ما وراء المعلوم فهو غابات وأحراج ، مَجاهِلُ تحوم حولها الظنون والأوهام حَيْرَى لا تطمئنّ إلى يقين . . . وإن هذه المجاهلَ لتنطوِى على كنوز عَذْراء بعيدةٍ عن مَنالِ العيون ، قُوًى هائلة لو أُتيحَ استغلالُها يوماً لكان منها آياتٌ ومعجزات ! . . .

فى رأسك العامر تتسامق أبنية عظيمة تَزْدَحِم بها الأركان ، وماهى إلا دواوين الوزارات فى دولتك الكريمة . . .

لقد تَميَّزَتْ فى رأسك مَناطِق ، لكل منها اختصاصٌ بجانبٍ من مَرافِقِ الحكم ، ولكلٍّ منها نفوذ وسلطان على سائر الجسد .

ودونك بعضَ ما تُعانيه من العِبْء الذى يضطلع به رأسُك ، إذ يَسُوس هذه الدولة ، ويهيمن على مصايرِها الجِسام . . .

أرأيتَ إلى نفسك ، وقد نقَمْتَ على أحدٍ فى بعض شأنك ، فثارت ثائرتك ؟ . . . ألستَ فى هذه اللحظة كأنك قد عَقَدْتَ « هيئةَ أركان حربك » فى وزارةِ دفاعك ، وعَبأْتَ جُندكَ فى أتمّ أُهْبَة وعَتاد ، لتقوم بتدبير أمرِكَ فى الهجوم والكفاح ؟ !

أرأيتَ إلى نفسك ، وقد تحَرَّجَتْ بك الأمور ، ودنا الخطرُ من مختلفِ مَرافقِ عيشك ؟ . . ألستَ فى هذه الحالة كأنك قد أعلنْتَ « الأحكامَ العُرْفية » فى دولتك . فَسنَنْتَ النظم ، وشرَعْتَ الخُطَط ، على أساسٍ من الحرمان والتحوّط ، إنقاذاً للموقف ، وارتقاباً لانفراجِ الأزمة ؟

ولعل الفردَ كانَ أسبقَ من الأمم تفطُّناً إلى إنشاء تلك الوزارة التى لها خطرها البالغ ، ألا وهى وزارة « الدِّعاية » .. فإن لهـذه الوزارة حُظْوَةً فى مملـكتك ، وإن لهـا فى رأسك مكانةَ الصدر بين الوزارات .

وأبرزُ عمل لتلك الوزارة الخطيرة ، هو الإشراف على صِحافتك الشخصية . وما صِحافتك هذه إلا تلك القطعة الطويلة الملساء التى تعْمُر ما بين شِدْقيْك ، ويطلقون عليها اسمَ : « اللِّسان » ! . .

ولطالما شاع فى مملـكتك الاِضطراب ، واسـترخَى فيها حَبْلُ الأمن ، وتعقَّدَتْ فيها السياسة الداخلية والخارجية ، من جرائر ذلك « اللسان » الجمُوح الذى لايهدأُ له صَخَب ولاضجيج . فلا يكونُ لمجلس وزرائك هَمٌّ إلا فرضَ الرقابة تِلْوَ الرقابة على ذلك الطاغية اللَّجُوج ، وإصلاح ما أفسده بثرثرته ولجاجته !

وَثَمَّةَ فى دولتك وزارة شذَّت عن سائر وزاراتك ، فانتبذتْ منها مكاناً قَصِيًّا ، ولم تَرْضَ بالرأس مسكَنا ، ولا بالعقل جوارا . فآثرتْ أن تتخذ الجوانح مَثابة ومثْوَى ، فتربعتْ فى مناطقها جميعا . وأَعنى بها وِزارة « القلب » . وهى وزارة مُترَفَة مُرْهَفَة ، حَسَّاسَةُ أَلُوف ، فيها تلتقِى الأهواء الطليقة ، وتتوهَّج العواطفُ الشاعرة . وإنها لَمسْرَح تتراءى عليه الأخيلةُ والأحلام . .

ولهذه الوزارة شِبْهُ استقلالٍ يثير بينها وبين سائر الوزارات ضروبا من المشكلات ، أساسُها تنازُعُ الاِختصاص !

وَبَدِيهٌ أن تـكونَ أشدُّ الوزارات خصومةً لهـا ، وأعنفُها نزاعاً

معها ، هى وزارة ماليَّتك ، فإن وزارةَ القلب فى ترَفِها وسَرَفِها لاتحرِصُ على توازُن ، ولا تُبْقِى على مُدَّخَر ! . . .

ولستَ تدرِى كيف تفرَّدتْ وزارة القلب بذلك المكان القصِىّ ، وكيف غنِمَتْ منك الاستقلالَ والتحرُّر . وأكبرُ الظن أنها كانت تأخذُ مكانها بين سائر الوزارات فى رأسِك العامر ، ولكنها لم تطِبْ نفساً بتلك القيود والنُّظُم ، وضاقتْ ذرْعاً بما يتحلّق حولها من عيون وأرصاد ، فتسَلَّلتْ إلى هذه المِنْطَقَة الْخَفَّاقة تلتمسُ الطَّلاقَةَ والأمان ! .

أفبعد هذا كلِّه تمُدُّ عينَك إلى تلك المناصب الوِزاريَّة الموقوتة التى هى رَهْنُ الأحوال والملابَسات ؟ .

أليستْ نفسُك أولىٰ بك ؟

أوليستْ دولتُك الشَّخْصية جديرةً أن تَشْغَلك عن عُلْيا المناصب ؟

لعَمْرُكَ لو حبَسْتَ جهودَك فى نطاقِ أمرِك ، فأحكمتَ تدبيرَ مشكلاتك على اختلافِ مناحيها ، وتَشَعُّب مَرَاميها ، لاستشعرتَ نَشْوَةَ السعادة الحقَّة التى هى أثْمَنُ ما فى الحياة . . .

لعَمْرُكَ لو بلغتَ من ذلك مَأْرَبك ، وألقيتَ على نفسك نظرة ، فرأيتَ شيوعَ الرخاء والطمأنينة فى خاصَّة شأنك ، لهانَ فى عينيك ذلك البريقُ الخَلَّابُ الذى يَخْطَفُ أبصارَ الناس من جاهٍ وسُلْطان ! .

لِلمرْء أذنان

نحن فى عصر تموجُ فيه الأفكار أيّما موْج ، وتتناوحُ الخواطرُ يَمْنَةً ويَسْرَةً ، لا تكاد تطمئنُ فيه النفوسُ إلى مَذْهَب من مذاهب الحياة ، أو تستقرُ على وَضْع من أوضاع المجتمع . . . فالعقولُ تتصارَعُ ، والمذاهبُ تتطاحَن ، والآراء تتخالَف والناسُ فى فورةِ ذلك الصِّراع الدائبِ قلِقُون حيارَى . . .

لاعجبَ إذنْ أن يتميّزَ عصرُنا الحاضر بأنه عصرُ المناقشة والحِوارِ ، فيه تتعدَّد المؤتمرات ، وتعمُرُ المنابرُ بالخطباء ، وتكثُر الجلساتُ تحتَ قبّة البرلمان ، وتتوالَى اللِّجانُ فى الوزارات والهيْئات . . .

وهذا كلُّه فوقَ ما تحْفِل به المجالِسُ والحَلَقات فى المَشارِبِ والأنديةِ من لَجَاجَةٍ فى الحديث ، وتجاذُبٍ لأطرافِ الجِدَال .

حتى إن هذه الظاهرةَ لتأخُذُ طريقَها إلى أخفَى الزوايا فى المنازل والأُسَر ، فتبدِّلُ أَمْنَها قلَقاً ، وسكينَتَها ثورةً واضطراباً .

وقد كانَ من أثَرِ ذلك فى نفسى أن جعلتُ أفكِّرُ فى فلسفة التكلُّم والإصغاء ، أو بتعبيرٍ آخَر : فلسفةِ اللسانِ والأُذنَيْن !

وعلى الرغم مما أعملتُ من فكرى ، فإن الفضلَ فيما انتهيتُ إليه

من رأيٍ يرجع إلى بَطلِنا الحَمُول الصَّبُور المُفْتَرَى عليه ، صديقِنا «الحمارِ» . . . هذه الشخصية الفَذَّة المجحودِ جميلها على بنى الإنسان !

ولعلكَ سائِلى :

ما وجهُ العلاقة بين هذا الصديق وبين فلسفة اللسان والأُذنين ؟

ليستْ العلاقة التى أراها وَهماً ولا كذباً ، فاصبرْ صبراً جميلا حتى يأتيكَ الخبرُ اليقين .

تباركَ اللهُ أحسنُ الخالِقين !

لقد خَلَق الإنسانَ فى أحسنِ تقويم . . .

خَلَقَه فقدَّره ، ولم يجعل تركيبَه عبثاً ، وليس يُعْوِزُنا إلا أن نتبيَّن حِكْمَةَ ذلك الخلْق ، وأن نهتدىَ إلى أسرارِ ذلك التركيب ، حتى نعرفَ لكل شىء حقَّه ، ونتجهَ به وِجْهتَه ، فلا نضلَّ فى ذلك سواء السبيل .

أمامَنا جِسْمُ الإنسان ، رُكِّبتْ فيه عينان ، ويدان ، وساقان . على حينِ أن فيه قلباً واحداً ، ولساناً واحداً ، ورأساً واحداً .

ولم يكنْ ذلك عفْوًا لغيرِ علَّة . . .

أولُ مايَلوح لك من سرِّ هذا التقويم أنه آيةُ التناسُق والانْسِجَامِ ، أَعْنِى تدبيرَ النِّسَبِ بين الأوصال ، طَوْعاً لفنِّ الجمَال .

ولكنَّ أعظمَ السرِّ فى ذلك التقويمِ ، هو الفائدةُ التى يجْنيها المرْءُ منه . . .

للمرء قدَمان ، ولو كانت له قدَم واحدة لما استطاع السيرَ إلا تواثُباً ، ولما توافرَ له من الكرِّ والفرِّ ما يتوافرُ له بقدمين اثنتين !

وللمرء يدان ، وفى المثَل : «يدٌ واحدة لا تُصفِّق» . فكلتا اليدَيْنِ

عَوْن للأُخرى على بُلوغِ المآرِب ، وعلى التَّوَقِّى من المكارِه .

فلماذا كان الإنسانُ ذا لسانٍ واحد ؟

بَدِيهٌ أن اللهَ جَلَّتْ حكمتُه أشْفَقَ على الناس من الناس ، حين اختارَ لهم هذا التقويم الحكيم . فلو كان للمرء لسانان لجَرَى من المصائب مالا يَدُورُ فى حِسْبانٍ ، فإن لسانا واحداً جرَّ على البشريَّة ما تُعانى مِنْ أذِيَّة وشقاء ، فكيف تكونُ الحال إن أعانه لسانٌ آخر فى ركوب تلك المصاعِبِ ، وَخَوْضِ تلك الغَمَرات ؟ .

ولماذا كان للإنسان أُذُنان ؟ .

يَرَى أهلُ الرأى أن المرءَ أحْوَجُ إلى أن يُصْغِىَ منه إلى أن يتكلَّمَ ، وإن أُذُنين اثنتين هما أقْدَرُ على الاِستيعاب ، وأَصبَرُ على الإصغاء من أُذُن واحدة .

ولكن ازديادَ الهُراء وتواصُلَ الثرثرة فى هذه الحِقْبَةِ من حياة البشرية لَيَدْعُونا إلى أن نُعِيدَ النظرَ فى فائدة الأُذنين ، وأن نُخْضِعَ السمعَ لوظيفةٍ أخرى .

لقد اهتدى صديقُنا « الحِمارُ » إلى ذلك منذُ عهدٍ عَهِيد . إذْ فَهِمَ أنّ الحديثَ أغلبُه لَغْوٌ ، وأنّ الكلامَ قليلُه خيرٌ وكثيرُهُ لا خيرَ فيه ، فَعُنِىَ بتطويعِ أُذنيه لوظيفةٍ أجلَّ من السماعِ وأجْدَى .

قَسَمَ « الحمارُ » سَمْعَه قسمين ، فجعلَ لِاستقبالِ الحديث أُذنًا ، وللتخلُّصِ منه أخرى .

الأُذن الأُولى للتزوُّد والاِستيعاب ، والأُذُنُ الأخرى كالمِصْفاةِ ،

أو كَصِمامِ الأمن ، أو كالمِدْخَنَةِ لإطلاق مالاحاجةَ به من البُخار الَحْبيس .

فَطِنَ الصديقُ إلى هـذه الحقيقة منذُ القِدَمِ ، فتَـكَيَّفتْ أُذُنُهُ طَوْعاً للحركة الدائبة من الاِستيعاب والتخلُّص ، ووَفْقاً لنظرية التطوُّر القائلة بأن الضرورة تَصْنَعُ العُضْوَ . . ولذلك استطالتْ أُذناه ، للمرَانَةِ الموصولة واليَقظَة الدائمة فى الاِستقبال والإرْسال !

وإنى أزْعُم ما وَسِعَنِى الزَّعْم أن هذا الحيوانَ أسعدُ خَلْقِ الله باهتدائه إلى استخدام أُذنيه على هذا الوضع الَحْميد .

وليس أدلَّ على سعادته من طُمأنينةِ الرضا السابغةِ عليه ، ومن تلك النظرة الفلسفية التى يديرُ بها عينيه فى مِحْجَرَيْه ، مُطيفاً بمَنْ حوْله فى سخرية واستخفاف .

إن صديقَنا ذا الأُذنين الطويلتين لايَضيرُه أن يُصْغِىَ ويصغى ، ما دامت إحدى أُذنيه صِمامَ أَمْن ، على أُهْبَةِ الاِسْتعداد للطرح والنَّبْذ . فهو بِمَنْجاةٍ من احتباس الحديث ، وتَرَسُّبِ اللغو . هيهاتَ أن يَضِيقَ صَدْرُهُ يومًا بما يبلغ سمعَه من قوْلٍ غليظ . . .

وأمانةُ النُّصْحِ تقتضينى أن أُوصِىَ باقتباس هذه الحكمة الغالية من صديقنا « الِحمار » . . . فلو فعَلْنا لاستقامتْ لنا الحياةُ فى كثيرٍ من صُوَرِها ومظاهرها !

وأنا مُوقِنٌ بأن أكبرَ خلافات الأحزاب ، ومُشْكلاتِ الطوائف والهيئات ، ستَذُوبُ ولا يبقَى لها أثر إن جعلنا إحدَى الأُذنين لاستقبال مايقالُ ، والأخرى للنَّبْذِ والاِطِّراح .

والعالَمُ اليوم يَزْخر بأمواجٍ من الدعايات المُهوِّشَةِ تُسْلِمُ الرءوسَ إلى دُوَار ، وتُؤَدِّي بالشعوب إلى ثورة وهِياج . . . فما أحْرَانا أن نتخلَّصَ من هذا الأثر السَّيِّئ ، باتخاذِ ذلك الأسلوبِ الْحِمارىِّ الحَصِيف !

كلما استطالتْ الأذن كان ذلك مَدْعَاةً إلى الراحـةِ والطمأنينة وهُدوء البال . . .

فإذا أردتَ أن تَعيشَ في بيتك ، وفي مَدارِ عملك ، وفي مَنْهَجِ خُطاك ، بارئاً هانئاً ، فلا تجعلْ أذنيك كِلْتَيْهما جِهازَ استقبالٍ فحسب ، ولـكن عوِّدْ إحداهما أن تكونَ جهازَ إرسال !

لستُ أقولُ لكَ كما يقولُ الدُّعاء المَمْلُول :

أطال الله عُمْرَكَ . . .

وإنما أقول لك مُخْلِصًا :

أطال الله أُذنَيْـك !

أعداءٌ ثلاثة

أعداء الإنسانيةِ كثير ، وصَوْلتُها في مملكةِ الشر قائمةٌ على قدمٍ وساق . وإنها لتَعيثُ في الأرْضِ فسادًا ما وَسِعها أن تَعيث .

ومنذ نجمَتْ هذه الأعداء قام في وجهها دُعاة الخير ، وأخلافُ الفضيلة ، يحُدُّون من عُدْوانها على وجه الأرض ، ويَكفُّون أذاها عن الناس .

ومابرِحَتْ أسماعنا تهُزُّها أصداء الحملةِ على ثلاثةٍ من هذه الأعداء ، أَوْغلَتْ في البغى ، وأمعنَتْ في الشرِّ ، فنهض لها قادةُ الأُمة يشُنُّونَ عليها غارةً شعْواء . . . تلك هي : ثالُوثُ الفقرِ والجهلِ والمَرَضِ .

وليس يُنْكِرُ أحدٌ ما لهذا الثالوث الكريهِ من جَسيم الخطر ، فإليه مَرَدُّ ما تُعانيه الامة من آلام شِدادٍ ، وما يعتاقُ خُطاها إلى الأمام من عقَباتٍ صِعَاب .

بَيْدَ أن هذه الأعداء الثلاثة على جَسامة خطرها تبْرُزُ في المُعَسْكَر المادِيِّ للعِيان ، وتُغْنِي في محاربتها عُدَّة حازمة حاسمة من وسائلِ الاقتصاد . فما أشبَهَها بالقُروح الظاهرة : داؤها مكشوف ، ودواؤها معروف . إذا أنت أخذتَ فيها بأسبابِ العلاج ، خبيراً به ، مُحْكِماً له ، كان لك أن تستقبلَ طلائعَ الشفاء .

وثَمّة فى حياتنا العامة أعداء باطنة تَكمُنُ فى دَخيلة النفوس، ويَسْرى أذاها فى المجتمع مَسْرَى الدَّمِ فى العروق. وهذه الأعداء المعنوية هى التى يتعذَّر التخلُّصُ منها إلا بجهد ورياضة ومعاناة.

ومما لاريبَ فيه أن المعنويَّات هى الأساس فى سعادة الإنسان، فكلما صَلَحَتْ المعنوياتُ أفاضَتْ من صلاحها على المادّيات.

ليستْ تلك المعنويّات إلا الرُّوح، وإذا قويَتْ طاقاتُ الرُّوح لم تَقْوَ عقبة على أن يَبْقى لها سلطان.

متى توافرتْ للنفس عقيدة وإيمان مَضَتْ فى طريقها تَشُقُّهُ، حتى ترُوعَكَ من أعمالها بالمُعْجِزات.

أفى مُسْتطاعِ امرئ أن يَسْعَى إلى مصاولة أعداء الإنسانية فى المعسكر المادىّ، دون أن يكونَ مدفوعاً إلى ذلك بعامل نفسىّ قوىّ موصولٍ بحب الخير؟

إن العالَم يدين برفاهِيَتِه، وبشُمول الخيراتِ فيه، لِقُوًى نفسية اتخذتْ من المُثُل العليا رائدَها فى الطريق، فأَحبّتْ الخيْرَ وَعَمِلَتْ عليه، وبذلتْ جُهْدَها له، حتى بلغَتْ ماتريد.

المعنويات إذنْ هى نَوَاة الرقىّ المادىّ. فإذا شئنا أن نُعْلِيَ من شأن المادّيات فى حياتنا العامة، فعلينا أوّلاً أن نجنِّد قُوَى النفوس للتخلُّص من أمراض النفوس.

ويلوحُ لى أن أعداء الإنسانية فى المعسكر النفسىّ، ثلاثة: الحَسَد، والبُغْض، والحِقْد.

وإن شئتَ قلتَ : إنه عدوٌّ واحد ، يتشكل فى ثلاثة أطوار من حياته . يبدأُ فى طور الطفولة حسَدا ، ثم يجتاز طورَ الشباب بُغْضا ، ثم يكونُ فى كهولته حِقْدا .

يَمُدُّ المرء عينَه إلى ما حولَه ، فإذا هو حاسد . ولا يلبثُ أن يُسْلِمَهُ الحَسَد إلى إبْغاضٍ من يَحْسُده . وما هى إلا أن يَحْقِدَ عليه ، فيطوِىَ النفسَ على إيذاءٍ له ، وإيقاعٍ به .

ذلك العدوّ المثلَّث هو حَجَر الزاوية فى مَأْساةِ البشريّة ، وليس مَيْدانه مقصوراً على الفَرْدِ وَحْدَه ، ولكنه يتعدّاه إلى الجماعات على اختلافها ، بل إنه يتخطاها إلى الدُّوَل على تفاوتها ، وإلى الأَجناس على ما بينها من تبايُن .

ولكى يناهضَ الإنسانُ هـذا العدوّ الصميم ، عليه أن يواجهه فى معسكره الأوَّل ، أَعنى : نَفْسَ الفرد . فإذا انكشفتْ عن الفردِ عداوتُه ، لم ينبسطْ لها ظلٌّ فى الجماعات والدُّوَل والأَجناس .

ولا تحْسَبَنّ النفسَ الواحدة من الضآلة بحيث يتيسّر علاجُها على كلِّ طالب ، فإن هذه النفس عالَم زاخِر يحتاج إلى تنظيم وتدبير وسياسة لا تقلُّ عن تنظيمِ الممالك وتدبير الأُمم وسياسةِ الدُّوَل .

متى اشتملتْ نفسٌ بهذه العداوة المثلَّثة ، عانتْ حالةً من الضعف والمرض . وهذه الحالةُ لا تصيبُ النفسَ بدافعِ الحِرْمانِ وَحْدَه . . فكم من نفوسٍ حَسَدَتْ فأَبغضتْ فحَقَدَتْ لغيرِ مُسوِّغ من حاجةٍ مُلجئة ، أو ضرورةٍ داعية !

مَرْجِع هذه العلة النفسية إلى بِذْرَة الأَنانِيَّة ، تلك التى تجعلُ النفسَ فى بُوتَقَةٍ من القَلَق والاِضطراب يَهِيجُها ماتراه حولها من خير ينصرف دونها إلى سائر الناس . فهذه النفسُ لاتَسْكُن ولا تقَرُّ إلا إن وَقَفَتْ بِمَرْصَدٍ ، لِتَرُدَّ عن السبيل خُطُوَاتِ الساعِينَ إلى الغايات .

كيف نكافح هذا العدوَّ المثلَّث ؟

كيف نُهَوِّن من بطشهِ ، إنْ عزَّ علينا أن نستأْصِلَ شأْفتَه ؟

كيف السبيل إلى أَن نُوفِّر للنفس حظَّها من الصحة والعافية ، فيجتمع لها من القوّة والثقة ما تَعتَصِمُ به من شرِّ ذلك المَرَض الوَبِيل ؟

لاجَدْوَى لمختلف العقاقير والأدواء فى علاج أَمراضِ النفوس ، فالسبيل إلى شفائها مَرْهُونٌ بترويضها على إيثارِ الخير ، وحُبِّ الغَيْر .

ليس فى مقدورنا أَن نَرُوضَ أَنفسَنا على الخير الشامل دَفْعَةً واحدة ، فالنفسُ حَرُون ، وإن النفسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوء ، ولابدَّ لها من مُدارَجَة وملاينة ، حتى تابَى الجِماح ، وتَخْفِضَ الجَناح .

ليأْخُذِ المرءُ نفسَه بادئَ بَدْءٍ بحبِّ أَقربِ الناس إليه ، وفى ذلك المَيْدان يَتَسَنَّى له أَن يُقنِعَ النفسَ بالْحَدِّ من الأَنانيةِ ، فَيَهَبَ من يشاركُهم فى العيش فَضْلَ سعيه ، وموفورَ إخلاصه . ثم عليه أن يَخْطُوَ بخيره درجةً أُخرى فيضمَّ إلى أهله من يجدُهم من حوله أعوانًا وإخوانًا . ولن يستعصى عليه بعد ذلك أَن يَنزِلَ عن أَنانيتِه — طَوْعًا — لمن لاصلةَ بينه وبينهم إلا صلةُ الإنسان بالإِنسان !

وبذلك التدرُّج فى تَرْوِيضِ النفس على التخلُّص من الأَثَرَةِ والأَنانيَّة

تتأصَّلُ تلك النزعةُ الإنسانية من الحبِّ والخير . وفى هـذا كَسْبٌ للبشرية عظيم .

أذْكُرُ فيما أذكر قصةَ فتًى فنَّانِ الرُّوح ، كان بالرَّيْحَانِ وَلُوعاً ، فأراد أن يستنبتَ وردةً مثاليَّةً لا عهدَ بها لأحد ، فقضَى أعواماً يزاولُ تجارِبَه لِجَمْع خصائصِ الورودِ الزَّكِيَّةِ فى وردته المنشودة . وكانت تصاحبُه فتاةٌ رَعْناء ، يَطْوِى لها قلبَه على حُبٍّ فوَّار ، فأغدقَ عليها عَطْفَه ، واحتمل رعونتَها فى مصابرة ومطاوَلة . وأعانَه حبُّه لصاحبته على أن يظلَّ ساعياً لخيرها ، لا يبالى أنانيَّة نفسه وحقَّها عليه . وبينما كان الفتى مسترسلاً فى تجارِب الورود ، كانت الفتاةُ تفكِّر فى حُسن معاملته لها ، وصَبْرِه على أذاها ، فأخذتْ تحاسِبُ نفسَها على ما كان منها ، ورجعتْ تتودَّد إلى فتاها فى دَمَاثَةِ خُلُق ، ولِينِ جانب . ويوماً جلس الفتى مغتمّاً يتحسَّر لإخفاقِه فى استنبات الوردةِ المثاليَّة ، فجاءته الفتاةُ مترفقةً به تسألُه :

فِيمَ تفكِّر ؟

فابتسمَ لها ابتسامةَ يأس ، فقالتْ له وهى تلاطفه :

ألا يكفيكَ أن أكونَ وردتَك المثاليَّةَ التى نجحْتَ فى خَلْقِها خَلْقاً جديداً ؟ !

فإذا أردْنا أن تكونَ الحياة رَوْحاً وريحانا ، فلنحرِصْ على أن نستنبت فى نفوسنا تلك الورودَ المثاليَّةَ التى يَضُوعُ منها عِطْرُ المحبَّةِ والإخاء . . .

دعونا نتنفس

لم تكد الحربُ العظمى تضعُ أوزارَها منذ ربع قرن ، حتى كان من آثارها أن طَغَتْ على العالم موْجات من التطور فى الأوضاع الفكريّة والنُّظُم الاجتماعية ، فانتقلت الحضارةُ الإنسانيةُ من عهدٍ إلى عهد جديد . . . وكذلك الشأنُ فى هذه الحرب الأخيرة ، فإننا نَلْمَحُ من مُعقّباتِها أن العالَمَ يتهيّأُ لوثباتٍ بعيدة المدى ، فيها جُرْأة ورعونة ، تزول بها دنيانا ، وتحلّ محلّها دنيا جديدة ، بما يسودُها من نُظُم وأوضاع .

ولذلك يحيا الناس اليومَ حياةً تتّسِم بالحيرة ، ويَشيع فيها القلق والاضطراب ، ويَغْمُضُ فيها المستقبلُ القريب والبعيد ، وتكتنفُها ظلمات من التخوّف والتوجّس والحَذَر . وإن هذه الحياة القَلِقةَ الفوّارة بأنواع المشكلات وضُرُوب العُقَد لتدعُو الناسَ إلى توقّع اشتباكٍ وعراك يتزلزل له أركانُ المعمور .

والحقُّ أننا نعيش فى عصرٍ تتراكم فيه أثقالُ الهموم ، وتتخايلُ أشباحُ المخاوف من بغَتات الأقدار . وليس هذا الترقّب والرّهَب مقصوراً على هيئات السياسة ومَجامع الدول ، وإنما هو وَباء تفشّى ، فلم يَدَعْ طائفة من الخَلْق ، ولا فرداً من عامّة الناس . . .

ومما يزيد الأمر خطراً واستدعاء للاهتمام أن تلك الحياةَ القَلِقةَ الحَيْرىٰ ، ليست مقصورةً على الرجال دونَ النساء ، وإنما هى تشمل الجنسَيْن على السواء ، فقد وجدت المرأة الشرقيةُ نفسَها فى بَحْرٍ متلاطِمٍ متخبِّطِ الأمواج ، تبْهَر عينها الأضواءُ السواطع ، وتُصِمُّ أُذُنَها الصيحات المدوِّيَة . فهى اليوم تُجاهَ مُعضلات اجتماعية تُصِيب الصَّمِيمَ من كِيانِ حياتها النِّسْوِيَّة ، إذ تتنازعها رَغَبات التحرّر المطلق والمساواةُ التامة بعَيْشِ الرجال . وقد كانتْ فى سوالف العهود آمنةً مطمئنّةً فى خِدْرِها تستمرئُ الهدوء والسكينة فى دنياها المحدودةِ بالأستارِ والأَسوار . ولعل المرأةَ لم تُسَاوِ الرجلَ فى شىءٍ قَدْرَ مساواتها له اليومَ فى الاِصطلاع بنصيبها من القلَق والحيرة وتوتُّر الأعصاب ! .

وإذن فالضرورةُ تقضى بأن ينظُرَ قادةُ الفكر وأساةُ المجتمع فى علاج لتلك الحال يخفِّف وَطْءَ هذه الهموم ، وَيُسرِّى عن القلوب تلك المخاوِف ، حتى لاتتبلور فتنقلبَ عُقدًا نفسية خطيرة ؛ تُفْضِى بالمجتمع الإنسانىّ رجالِه ونسائه إلى أَوْخَمِ العُقْبىٰ .

ومما هو مسلَّم به أنه لاشىءَ كالتنفيس فى علاجِ المشاعر المكبوتة والهموم الرازحة ، فإن المرءَ إذا حزَبه أمر لم تكنْ له من وسيلةٍ طبيعية إلا البُكاء والانتحاب ، أو الصُّراخ والهياج . وما المظاهراتُ سَلْمِيَّةً أو عَنِيفةً إلا نوع من التنفيس لمشاعر الجماهير ، حين يَضِيقُ صدرُها بما تُحسُّ به من استنكارٍ للظلم ، وثورة على الاِضطهاد .

وقد يَهْتَدِى الناسُ إلى أساليبَ من الحركة والضجيج يتلمَّسُون بها مُتَنَفَّسًا مما يجدونه فى صدورهم من حرَج وضيق . ومما وُفِّقَ إليه الإنسان من تلك الأساليب ذلك الرقصُ العصرىُّ الشائع — أعْنى تلك المخاصرةَ الثُّنائيَّةَ الراقصة — فهى وسيلة اجتماعية قُصِدَ بها إلى التنفيس والتفرُّج من ضَغَطات الهموم والأَحْزان .

ولقد تطور هذا الأُسلوب طَوْعًا لمقتضيات الزَّمن ، ففى أعقاب الحرب الماضية ، منذ عِقْدَيْن من السنين ، شاع ضرب عنيف من ذلك الرقص يؤدِّيه الراقصون على الإيقاعِ الموسيقِىِّ الْمُسَمَّى « الجاز » . . .

ونحن وإن كنا لانَجْحَد فضل الرقص العصرىّ فى التنفيس ، نرى أنه ليس بالملائم كلَّ الملاءمة لطبيعتنا الشرقية ، لامن وِجْهَةِ جوِّنا الحارِّ وما له من آثار ، ولامن وِجْهَةِ الأَخلاق والتقاليد . . .

فَحُقَّ علينا أن نفتِّشَ عن أسلوبٍ آخرَ أَوْفقَ وَأَلْيقَ يبلُغُ بنا المنشود .

وعندى أن وسائلَ التنفيس لاتُؤْتى ثمرتَها إلا إذا كان أساسُها إطلاقَ طاقاتٍ من القوة المكبوتة فى أَلفاف النفس ، فتنبثقُ أصواتًا واهتزازاتٍ وحركات .

أفنجدُ وسيلةً مستمدَّةً من عاداتنا ، موافقةً لطبيعتنا ، أجملَ وأكرمَ من « الزار » للمرأة ، « والذِّكْر » للرجل ؟ .

نظرة خاطفة إلى حَلْقَة « الذِّكْر » ومَجْمَع « الزار » تجلو لنا أن ذلك

« الذِّكْر » ملائم لوقار الرجولة ، وأن هذا « الزار » يَفْسَح للمرأة أُفُقًا لعاطفتها ، ومَسْرحًا لخيالها ، تَمْرَحُ فيه ما وَسِعها المِرَاح . .

« الذِّكْر » و« الزار » فى حقيقة أمرهما ضربان من الرقص الإيقاعىّ ، يندمجُ الإنسان فيـه ، فيتزحزح الغِطاء عن العقل الباطن ، وتنطلق المشاعرُ المـكبوتَةُ من سِجْنها العَتِىّ . ولا يلبثُ القلبُ أن يصفوَ رُوَيْدًا من شوائبه ، ويَتَنَسَّمَ الرَّوْحَ والرَّيحان !

الرجل فى حَلْقة « الذِّكْر » يتمايل يَمْنة ويَسْرة ، ويهتزّ فى صعود وهبوط ، تحدوه موسيقى شَجِيَةٌ من الناى والمِزْمار ، وأنغامٌ من شَدْوٍ عذب رفيع يَسْحَر السمع ، فإذا الرُّوح يَخِفُّ بها الشوقُ والحنينُ إلى آفاقٍ صوفيَّة عالية يَشِيع فيها الطُّهْر والنقاء !

والمرأة فى مجمع « الزار » وقد أخذتْها ضَجَّات الدفوف وصيحات الإنشاد ، تكسوها حلل زاهية زاهرة ، وتَزِينها حُلِىٌّ برّاقة طريفة — تراها قد نَسِيَتْ نفسها ، فانطلقتْ سابحة فى أجواءٍ بعيدة من الأخيلة والتصوّرات ، يتحرَّر بها ما كان مكبوتًا من الرَّغاب ، وينتعشُ ما كان مغلوبًا على أمرِه من النوازع والأهواء !

وأنتَ لو مضيتَ تبحث : أىُّ الناس أولىٰ بأن يتفرَّجوا مما بهم من الضوائق ، لما رأيتَ أجدرَ من رجال السياسة بأن يَغْشَوْا حَلَقات « الذِّكْر » : هم يحيَوْن حياة زاخرة بالخصومات والأضغان ، ويتنفسون فى جوٍّ يتطلب الحَيْطَة والمساتَرَةَ وشتى أساليب الـكيد والدِّهان . وإن

هذا كلّه لمُفْضٍ بهم إلى كبْت ثقيل، وحَمْلٍ على النفس غيرِ قليل. فإذا فزِعوا إلى حلقات «الذِّكْر» تسنَّى لهم أن تذوبَ بين حناياهم رواسبُ الأحقاد، وأن تعلوَ نفوسُهم عن الدنايا والصغائر، وأن تتطهَّرَ ألسنتُهم من أدران المهاترة والمِراء. فلا يكاد ينتهي بهم حَفْلُ «الذِّكْر» حتى يُلْفُوا أيديَهم قد تقاربتْ بالمصافحة الخالصة، وأذْرُعَهم قد انبسطتْ لعِناق أخَويٍّ مُصَفًّى...

لَعَمْرِي إن «حفلةً ذاكرة» لهِيَ أعْمَرُ بالخير وأجلَبُ للود وأجمعُ للقلوب من عشَرات المؤتمرات، تقام على خُدْعَةٍ ونفاق، وتَنْفَضُّ على ضغينة ودَغَل!

ما أكثرَ حفلات الشاي ومجامع الشراب «كوكتيل بارتى» فى عصرنا الراهن، تتحلَّق فيها أخلاط من طوائف المجتمع المختارَة، وتتراءى فيها الوجوهُ عليها مَسْحة البِشر وصِبْغَة الإيناس فإن كنتَ ممن يَسْبُرون الأغوار، ويستشِفُّون ما وراء الأستار، تبيَّنْتَ أن الجامعةَ التى تؤلِّف بين أشخاصهم، وتصل بين أحاديثهم، إنما هى جامعةُ الرِّياء الاجتماعيّ الجليل!..

أفليس من حقّ المجتمع الظامئ إلى محبَّة وسلام، أن يُطالِبَ بإلغاء هذه الحفلات الزائفة، والمجامع الكاذبة، وأن يُحِلَّ محلَّها حَلَقات «الذِّكْر» الصافية الوادعة، تُدار فيها على الذاكرين أكوابُ القِرْفة والزَّنجبيل، فيشربونها على الألحان العِذَاب من طبل ومزمار؟...

ويارُبَّ معضلةٍ دهياءَ فى موقفٍ دوليّ أعيتْ كبراءَ السَّاسة،

فلم يجدوا لعقدتها من حلّ . ولو أطلقوا لأنفسهم أعِنّتها فى حفل «الذِّكْر» لانفتحَ لهم الرأى ، وبرَقَتْ لهم بوارق التوفيق من أيسر سبيل . فقد هدَتْ أبحاثُ علم النفس الحديث إلى أن العقلَ الواعىَ قد يَكِلُّ ويَعْيا بالأمر ، فإذا أسْلم المشكلةَ إلى العقل الباطن ، تَجَلَّى له وَجْهُ التدبير ، فيما يشبه غَفَواتِ الأحلام !

أما الأوانسُ والسيدات من الطبقات العليا والوُسْطى ، فما أحوجَهن إلى التخففِ من تلك المراقص والمساهر التى يسودُها التكلف والتظاهر ، ويتفشَّى فيها التفاخر بأناقة مصنوعة مزوَّرة . وما أحوجَهُنَّ إلى أن يَصُنَّ زهرةَ شبابهن التى تُذْويها السهرات الموصولة بين رَقْص وشراب .

لقد آن لهنّ أن يَعُدْنَ إلى مجامع « الزار » يَنْفُضْنَ فيها همومَ البيتِ وأثقال الحياة ومخاوف المستقبل . وإن المرأة فى هذه المجامع المقصورة على بناتِ جنسها ، لتجدُ الفرصةَ سانحةً على أنغام الدفوف لِتُطْلِقَ سجيّتها ، وتبسُطَ دَخيلَتها ، لا يعوقُ حريّتَها عائق ، ولا يصرفُها عن البَوْح بمكنونها شىء . . .

ويلوحُ لى أن مجامعَ « الذِّكْر » ومحافل « الزار » لا تكاد تفشو بيننا ، وتتوطَّد تقاليدها الجديدة ، على أنماط موائمة لحياتنا الحاضرة ، حتى نراها قد تَخَطَّت التُخُوم ، وسَرَتْ عَدْوَاها إلى أمم الغرب ، التماساً لما فيهما من بركة ونفع ، فيعالجون بها ما يعانُونَ من قضايا دولية ومشكلات

قومية وأمراض اجتماعية أَعْضَلَتْ واستعصتْ على العلاج ، وعَزَّ منها الشفاء . . .

لَتَسْمَعَنَّ العَجَبَ العاجبَ من أنباء « الذِّكْر » و « الزار » الشرقيَّيْن ، حين يُمْسِيانِ أمريكيَّيْن ، تتفنَّن فى تجديدهما العبقرية الأمريكية المُولَعة بالتجديد والإطراف ! .

ولسوف يَرُوقُك ويطربُك حقاً أن تطالعَك الصحف بنبإ من « ليك سكسس » يذيعُ لكَ أن اكفهرارَ الموقفِ العالمىّ ، وشيوعَ القَلَق على مصير السلام ، قد حفز « الرئيس » على أن يقيم فى « مجلس الأَمْن » حفلةَ « ذِكْر » دولية خطيرة ، فيتنافس سفراء الدول وعُمَدَاء الأمم فى تأدية هذا « الذِّكْر » بين الإنشاد والتَّطَوُّح . . . فما ينتهى الحفلُ ، حتى يُرَوْا مستبشِرين مُفْتَرَّةً ثغورهم عن بَسْمة الرضا والاطمئنان ، فإذا هم قد تَلاقَوْا على هوًى واحد ، وإذا هم قد تَلافَوْا بذلك ما كان مُوشِكاً أن يَنْشَبَ من عواصف الشُّرور ! . . .

فلنسارِعْ إلى تجربة « وَصْفَة » الذِّكْر والزار .

ولْنُعِدَّ لهما العُدَّةَ من أنواع البَخُور الزكىّ .

وَلْنُجَنِّدْ كبارَ المغنين والمغنيات يُنْشدون فى هذه المحافل الجديدة .

ولنتهيَّأْ لاقتحام المَيْدَانِ على دَقِّ الطُّبول !

العالم بين شِقّيْ رحى

العالمُ على وجهٍ عامّ، يتنازعهُ اليومَ عنصران أصيلان . . .

الأول : العنصر « السّلافِىّ » .

والآخر: العنصر « الأنجلوسكسونىّ » .

ولسنا فى مقام التكهُّن بما يكون من تغلُّب أحدِ العنصرين على الآخر، ولكننا نُلقِى نظرةً على العنصر «الأنجلوسكسونى» الذى تربِطنُا به وشائجُ وثيقة، والذى هو أقربُ إلى أفهامنا منالا . .

هذا العنصر — فيما يبدو — جبْهة واحدة، ترْسُم خُطَطا للنظام الاجتماعى العالمىّ . . ولكن لا يُعْوِزُنا أن نتبينَ ضروباً من الخلاف وانقسام الرأى، تجعل ذلك العنصرَ فى حقيقة الأمرِ شَطْرَين اثنين :

أحدهما : إنجليزى . والآخر : أمريكى

فما مرجع هذا الخلاف ؟ وما علة ذلك الانقسام ؟

لو سألتَ إنجليزيا : من هو الأمريكىّ ؟

لرأيتَه يرنُو إليك بعينَيْه الزرقاوين، وملامحه الصُّلْبَة، وهو جالسٌ جلسته الجافية، وفى فمه « غليونه » الخالد، وكأنه يفكِّر فى مشكلة مستعصية، ثم إذا هو بعْدَ لأْيٍ يقول فى لهجـــة إهمال وزِراية :

ليس الأمريكيّ — فى حقيقةِ أمره — إلا إنجليزيا هَجيناً، عَبِثتْ به يَدُ الاختلاط . . .

ولو ألقيتَ على الأمريكيّ سؤالكَ : من هو الإنجليزيّ ؟

لأجابكَ خفيفَ النَّبْرة ، مُشرقَ الطَّلْعَة ، قائلا :

ليس الإنجليزى إلا أمريكيًّا من العصر الحَجَرىّ !

ثم يُتْبِعُ قوله بقهقهةٍ كأنها وَصْلَة موسيقية تَتْبَعُ صوتَ الغناء !

كلاهما لا يخلو قولُه من صِدق . . .

فالأمريكيّ — فيما يرى الإنجليزيّ — ما هو إلا إنجليزيّ فى نَسَبه ومَحْتِده ، ولكنه فقَدَ على الزمان دَمَ النَّسَب ، ورُوحَ العنصر ، بما تفشّى فيه من مَزْج واختلاط . فهو اليومَ أشدُّ ما يكون حاجةً إلى وَصاية إنجليزية ترعاه وتحاول انتخالَه وتصفيتَه ، وتَنفُثُ فيه مقوِّمات العنصر « الأنجلوسكسونى » ، حتى يستقيمَ عُوده ، ويستردَّ ما فقَدَ من خلوص جوهره . . .

والإنجليزيّ — فيما يراه الأمريكيّ — ما هو إلا أخ له وصِنْو ، بَيْدَ أنه أمريكيّ عتيق ، أكل عليه الدهر وشرب ، وأضَرَّ به البقاء فى موطنه ، فلم يتجدَّد بالرحلة والانتقال ، ولم يكتسبْ من حيوية التجارب دماً فتيًّا يبعثُ فيه الحَمِيَّة والنشاط . . . وهو اليومَ أشدُّ ما يكون حاجةً إلى وَصاية أمريكية تجدِّد شبابَه ، وتنفُثُ فيه النضارة والفتُوّة ، وتخرج به من غياهبِ التقاليد والجمود . . . حتى يستطيعَ أن يُسايرَ رَكْبَ الزمن فى شَقِّ الآفاق !

الأمريكية طابَعُها الفورةُ والاِنطلاق والاِقتحام ، لا عائقَ من سَدٍّ أو قيد . . . وسِرُّ هذا الطابع أن الأمةَ الأمريكيةَ تلتقِى فيها أخلاطٌ من الأمم ، وأشتاتٌ من العناصر ، انتُزِعَتْ من منابتها ، وأُلقِىَ بها فى ذلك الميدان الجديد ، فانقطعت صلتُها بالأصول ، وأصبحتْ حرَّةً طليقة لا يعتاقُ خُطاها رعايةٌ لماض ، أو تأثُّرٌ بقديم ، أو احتفاظٌ بموروث . . . ومن ثَمَّ تروعك فى الحياة الأمريكية ألوانٌ من المتناقضات . فمن طُهْرِيَّةٍ متزمِّتة ، إلى إباحيّة جارفة . ومن اشتراكية متطرِّفة ، إلى رأسمالية عارمة . ومن مِثاليّاتٍ رفيعة ، إلى سخافات يشيع فيها الاِبتذال . ولهذه المتناقضات جميعا مُتنفَّس فى ذلك البلد الرَّحْب الحُرّ ، تتنافس وتتغالب ، وتحاول أن تثبتَ أحقِّيَّتها وكفايتَها فى الوجود !

أما الإنجليزية فى جزيرتها التليدة ، فليست إلا قالباً مَكِيناً قد عَمِلَ الزمن عمله فى تماسُكه وتجمُّعه ، حتى أصبح متميِّزًا بعقلية راتبة ثابتة متجانسة .

الأمريكىّ مغامر ، حياتُه تجاربُ متواصلة ، ليستْ على غرار سابق . وهو يقوم بها مدفوعًا بفطرته وبَداهتِه على أىّ نحو تكون ، لا يفكر فى العُقْبَى كيف تجِيء . ومن ثَمَّ كان بلدُ الأمريكىّ مَعْمَلَ الاِختراع ، ومَعرِضَ الطرائف ، فى كل مَرْفِقٍ من مرافق العيش . . . وإن كان كذلك بلدَ العثَرات المختلفةِ فى التجارب والمحاولات . وتلك سُنّةُ الكون ، وطبيعةُ الخَلق والإنشاء .

ولكن الإنجليزىَ فى جزيرته إذا خطا فكَّر طويلا كيف يضع

قدمه ، وإذا سار تمهّلَ واتّأد ، لمْ تُعْوِزْه القدوة ، ولم يَعِزّ عليه الاحتذاء ، ولم يجدْ من نفسه حافزاً إلى قفز ومواثبة . وهو دائماً يتلفّتُ حواليه يتبينُ سوالفَ التجارب ، وعواقبَ الأحداث ، خَشْيَةَ التعثُّر والانزلاق لا يتوخّى خُطةً ولا يسلُك طريقاً إلا إن تَملّك ناصيةَ الأمان !

وربما كان أوضحَ ميدانٍ لذلك التخالف فى الطابَع بين الإنجليز والأمريكيين ، هو ميدانُ السياسة .

فالأمريكيّ فى هذا الميدان ذو وجه جديد ، فليس له تقليد يرتبط به ، وليستْ له سابقة يبحث عنها لينتهجَ مِثالَها . وإنما يعالج ما يَطرْأ من شئون السياسة بوحى الساعة ، وعَفْوِ الفكر . ولذلك تعددتْ فى خُططه وقراراته زلّاتُ الاِسترسال ، ومزالقُ الاِرتجال !

فأما الإنجليزىّ فإنه سياسىّ تليد ، لسياسته أعراقٌ تنفُذُ فى غوابر الأحقاب . وهو فيما يعرِض له من المشكلات والأزمات يستهدِى ماضياً عميقَ الجذور ، ويترسّمُ مبادئ موروثة لا يبْغِى عنها حوَلا . ولذلك تَتّسِمُ السياسةُ الإنجليزية فى كثير من مواقفها بالاِستمداد من المنابع القديمة ، بيْدَ أنه استمداد مَرِن يتشكّل وَفْقاً للطوارئ والأحداث !

وفى طليعةِ ما يتباين فيه الأخوان : الأمريكىّ والإنجليزىّ ، أن الأولَ — طوعا لفتوّته وتنوّع منابته — نزّاعٌ إلى الخيال ، وهذا ما يدفَعُ به إلى المغامرة والتهوّر فى كثير من الأحيان .

على حين أن الآخرَ — طوْعاً لأصالتِه وحُنْكتِه — أمْيَلُ إلى الحقائق العملية .

فالإنجليزىّ يعيش بعقلية التاجر الدَّرِب ، وسياستُه فى كل عهود أمبراطوريته تسير على هُدًى من هذه العقلية وحدَها ، عقليةِ التاجر ، تلك التى تتعاقَبُ عليها حظوظ الكسْب والخسار ، والفوْز والإخفاق .

ومعلوم أن نَواةَ الثورة الأمريكية على الاِستعمار الإنجليزىّ كانت ضريبةَ الشاى التى فرَضها التاجر — أعنى : السياسىّ — الإنجليزىّ على أهل البلاد ، فثارُوا به ، وألقَوْا ببضاعته فى مُصْطَخَبِ الموج ، وما لبثوا أن أجْلَوْه جَلاءً إلى غير رَجْعَة !

ويحدثُنا التاريخُ بعيدُه وقريبُه أن الإنجليزىّ استعمر « الهندَ » أولَ ما استعمرها تاجراً يبتغِى الرِّبح ، ثم تبعه الجندىُّ الإنجليزىّ يوطِّد فى ربوع « الهند » قدَمَ التجارة . وهاهو ذا وقد أتمَّ مهمتَه ، يجلُو عن تلك البلاد ، تاركاً التاجرَ الإنجليزىَّ الأصيلَ يواصلُ عملَه فى طمأنينة وسلام !

وإنا لنرى اليومَ هذا التاجرَ ، وقد أثقلتْه حُمُولتُه ، وبهظَتْه تبِعاتُه ، وهو فى ملتطَمِ العباب ، يعالج أن يبلغَ الشاطىء ، ناجياً بنفسه من غَرَقٍ وَشِيك ، فلا يجد من وسيلةٍ وحيلة إلا أن يتخففَ مما به ، وأن يُصَفِّىَ ما يحمله ، فإذا هو يُلْقِى عن كواهله ما يعُوق حركتَه فى صِراع الأمواج ، حتى يستأنفَ عهداً جديدا من حياته التجارية ، خالصاً من أوقارِ الماضى وأثقاله . . .

ولو أردتَ تمثيلَ الأمريكىّ والإنجليزىّ لكان أقربَ شَبهٍ إلى الأمريكى ، هو الفتَى الحديثُ العهد بإرْثٍ عريض ، الفتى الطَّرُوبُ المِمْرَاحُ يزهو بمالٍ وصحّةٍ وشباب . ولكان أقربَ شبَهٍ إلى الإنجليزى

هو ذلك « الجنتلمان » الهَرِم ، يريد أن يستبقىَ ما يسعُه استبقاؤه من فُضَالَةِ ثروته ، وأَنْقَاضِ صحته ، وذَمَاءِ حياته . فهو بمظهره المتحفِّظ المترمِّت يغالبُ الأقدارَ وتغالبُه .

وعلى الرَّغْم مما ترى من خلاف بين الإنجليزىّ والأمريكىّ مازالان يسيران جنباً إلى جنب فى رَكْبِ الحضارة . . . فقد استيقنَ كلاهما أنه متمِّم لصاحبه ، وأن اعتزالَه يعرِّضُه للخطر .

والأُمَّتان الإنجليزية والأَمريكية كأنهما « برلمان سكسونى » ، يقتعدُ الأمريكىُّ مجلسَ نُوَّابه ، ويقتعدُ الإنجليزىّ مجلسَ شيوخه . وفى هذا البرلمان تتكتَّل السياسة السكسونية التى هى مِزَاجٌ طَرِيف بين ما للأَمريكىّ من طَفْرَة ونزَق ، وما للإنجليزىّ من محافَظَة وتوقُّر . . .

وهذا العنصر السكسونىّ بشَطْرَيه يحاولُ أن يضعَ العالم بين شِقَّىْ رحَاه . . .

فماذا يكونُ نصيبُ العالَم من هذه المحاولة ؟

هل يكونُ نِتاجُ هذه الرَّحىٰ جعجعةً جوفاء تَصْدَعُ الرءوس ، أو طِحْنًا يُسْبِغُ الخيرَ والبركات ؟!

الدنيا هي

بيننا وبين سنة ألفين خمسون من الأعوام ، ولا مِرْيَةَ أن هذه الحِقْبَةَ تَطْوى بين جوانحها عجائبَ من المخترَعاتِ فى مرافقِ الحياة ، وسيكون من أثرِها أن يَلحقَ التغييرُ أساليبَ العيش فى المأكل والمَلْبَس والسُّكْنَى . وكذلك لابدَّ أن تتقدمَ وسائلُ الانتقال ، حتى لقد تُجاوِزُ لَمْحَ الخيال !

معجزاتٌ فائقة ننتظرها ونستشفُّ أطيافها فى أُفُقِ المستقبل القريب ولسوف تجعل العالَمَ يحيا فى دنيا جديدةٍ تتجلَّى فيها عبقريةُ المدنيَّة والتحضُّر . . .

وليكونَنَّ للإنسان فى صميم كِيانِه نصيبٌ موفور من ذلك كلِّه ، نصيب يحفَظُ له صحتَه ، ويَمُدُّ فى عمره ، ويواتيه بمختلف أسباب الوقاية ووسائلِ العلاج .

ولكن هذا الرُّقِىّ المرتقَب فى شتّى مرافق المجتمع البشرىّ : هل يتعدَّى فى حقيقة أمره الجانبَ الشكلىَّ الظاهرَ من حياة الإنسان ؟ .

هذه المخترَعاتُ ، وإن بلغتْ شأوَها الأقصى ، هل تتغلغلُ إلى جوهر النفس الإنسانيَّة وخصائصها الثوابت ؟

أ كافيةٌ مئاتٌ من السنين ، بَلْهَ خمسينَ ، فى تطويرِ الجنس البشرىّ وتقـلـبِهِ من حالٍ إلى حال ؟ .

إن وراء البشرية رُكاماً من القرون يَقبَلُ الغلوّ فى الزيادة أكثرَ مما يقبل التحديدَ والنُّقصان . . . ولقد أرستْ هذه القرونُ قواعدَ من الغرائز والمنازع فى قَرَارتِ النفوس ، فهى تأبَى أن تَلِينَ لمؤثِّرَاتٍ مُحْدَثَة تُعَدُّ أعمارُها بمئات السنين .

مَثَلُ الإنسان فيما يتقلَّب فيه من مختلف الحضارات ، كمثله فيما يستبدِلُ من الثياب ... فهو ينشئ الحضارةَ الجديدة ، كما يتخذُ الملبَسَ القَشِيب ، بيد أنه هو هو على اختلافِ عهوده فى التحضُّر ، كما أنه هو هو على اختلاف ما يُلابِسُ من أزياء ! .

تقولُ الحكمةُ البالغة :

التاريخُ يعيدُ نفسه .

وليس للتاريخ موضوع إلا ذلك الإنسان ، فهو الذى يُعيد نفسه مرّةً بعدَ مرة ، وهو الذى يكرر شخصيتَه الواحدةَ فى حيَوَاتِه المتعاقبة ، وإن تبايَنتْ فيه الصور والألوان .

إننا لنتساءل :

هل تخرجُ هذه الكائنات البشريّة يوماً عن طبيعتها ، فتتبدَّلَ خَلْقاً آخر ؟ .

هل ينتظر هذا الكوكبُ الأرضىُّ ، فى يوم قريب أو بعيد ، أن يَدِبَّ على أديمه إنسانٌ جديد ، خالص مما ترسَّبَ فينا من غرائزَ ونزعات ؟ .

أكبر الظن أن أعظمَ المخترعات شأناً ، لن يكون إلا وَقُودًا تضطرم به غرائزنا الأصائل ، وتقْوَى به نزعاتنا الثوابت . فالحقُّ أننا بهذه المخترعات على اختلاف غاياتها ، نُرْضِى فى أنفسنا أُمّهات الغرائز من الغَلَبَة والسيطرة وتنازُع البقاء .

ما أبطأ الغريزَةَ فى التطوُّر ، وما أعْصاها على التحوُّل ! .

إنها وليدةُ البيئَة ، فلا بد أن تعمَلَ البيئةُ على تغييرها حتى تنقادَ وتستلين .

ولستُ أعْنى بالبيئةِ تلك الظواهرَ المصنوعة ، والقشورَ الزائفة ، وإنما عَنَيْتُ بها البيئَـةَ الطبيعية التليدة التى تزداد تأثُّلاً وتأصُّلاً على مرِّ الأحقاب .

والإنسانُ فى حياته الحَضَرِية ، قِسمةٌ بين عقلِه وغريزته ، وهما مختلفان فى مَدَى استعدادِهما لقبول التطوُّر . . .

العقلُ نزَّاع إلى التجدُّد ، وَلوعٌ بالاستحداث ، مجتهِدٌ فى التغيير . والغريزةُ صُلْبَةٌ جامدة ، حريصةٌ على تُراثِها العتيق ، تحتفظ به ، ولا تَنْزِل عن شىء منه .

إذا نَشِطَ العقل يخترع ، فوَاتاه التوفيق ، ودانَتْ له معجزات تَرْقَى به فى سُلَّم الحضارة ، أَلْفَيْنا الغريزة تَعْمِد إلى مجهود العقل ، فتطوِّعُه لخدمة أغراضها ، وتحقيقِ غاياتها ، لايعتاقها فى سبيل ذلك شىء .

لايَخْدَعَنْكَ ما ترى من بَرِيق المدنيات ، وما يتشدَّقُ به الإنسان من رُقِىِّ الإنسان .

وراء ذلك الستارِ من الطِّلاء ، يَكْمُنُ الآدميُّ الأصِيل ، يبتسم ابتسامةَ السُّخْرِ والاِستهزاء بتلك الأوهامِ والأخاديع !

الإنسانُ هو الإنسان . . .

تسامَى به العقلُ من أعماقِ الكهوف إلى أطباقِ القصور ، ولكن الغريزةَ أبْقتْه محكومَ النفس على اختلافِ حالاته بشريعةِ الغاب !

مازالتْ « الحرب » فى عصر العبقرية العلمية والسموِّ الحَضَرِىّ ، هى الفَيصلَ الأخيرَ فيما يَنْشَب بيننا نحن الآدميين من مخاصَمَة ونزاع ، فهى — إلى يومنا هذا — أوضحُ مظهرٍ لتنازُعِ البقاء بين الشعوب .

ظلتْ « الحربُ » فى رِكابِ الإنسان تُسايره . . .

فالمعاركُ العالميّة التى شَهِدْنا مَعْمَعانَها ، هى فى حقيقتها وجوهرها تلك التى كانت تدور بين الإنسان والإنسان فى عصورِ ما قبل التاريخ ولا فَرْقَ فى الحقيقة والجوهر بينها وبين المعارك التى تقوم بين الحيوان والحيوان فى سبيل حِفْظِ الأنواع .

الحربُ أداة طَحْنٍ وغربلة ، تعملُ طوْعاً لغريزة السيطرة ، وَوَفقاً لحقيقة « بقاء الأَصْلَح » . . . وعند رَبِّى وَحْدَهُ عِلْمُ هذا « الأَصْلح » : أىّ شىء هو ؟ وما عناصر « صلاحيته » على الوجه الصحيح ؟.

لَعَمْرُكَ إن النفسَ مابرحتْ هى النفس ، خالدة النزعات والشهوات .

هذه شهوةُ التشفِّى والاِنتقام ، شهوةُ التنكيل بالمغلوب على أمره ، لقد تجلَّتْ فى الحرب الأخيرة أبشعَ ما تَتجلَّى ، فإذا هى تزداد قساوة وضراوة عما كانتْ عليه فى العهود التى تُلَقِّبُها عهودَ الوحشية والظلام !.

هـذه نزعةُ المغامرة والمخاطرة ، تلك النزعةُ التى تتَّسِم بالجرأة والتهوُّر ، مستمِدَّةً وَقُودَهَا من غريزة الهيمنة والتأمُّر ، لقد تبدَّتْ صوراً وألوانا فى المجتمع الإنسانىّ ، ولـكنها لبثتْ خالدةً لا تنالُ منها رفاهيةُ المدنية ، ولا تُخْمِدُها رخاوةُ الأمنِ والطمأنينة ، فاتخذتْ لها على تعاقبِ العهود صوراً جديدة ، وألوانا أُخَر . . .

وفى الحقّ ليس إنسانُ اليوم أضعفَ جسارةً وتعرُّضًا للمخاطر من إنسان الأمس ، وليس أهونَ منه إنـكارًا للنفس وسماحةً بالفداء واحتمالا المكاره والصِّعاب . فإن أعمالَ البطولة فى ركوب البحار كَشْفاً عن المجهول ، وفى اعتلاء الطائرات ذهاباً إلى الأقصىٰ ، وفى حمل المُهْلِكاتِ توصُّلا إلى الأهداف ، لا تنزلُ درجةً عن أعمالِ البطولة التى سجلها التاريخُ للإنسان القديمِ ، توطيداً لسلطانه ، فى مُؤْتَنَفِ زمانه !

لقد تغلغلت الغرائزُ والنوازع ، حتى أصبحتْ جزءاً فى بذرة الحياة لا ينفصلُ ، فلكى نَطْمَحَ إلى إنسانٍ جـديد بمنجاةٍ من هذه الغرائز والنوازع ، يجب أن نُغَيِّر تلك البِذْرة .

فهل هناك اختـراع ييسِّر لنا أن نستبدلَ بغرائزنا العادية غرائزَ مستحدَثات ؟

هل فى مستطاعنا أن نتحكَّم فى النفس البشرية ، فنُخضعَ نزعاتها على وَضْع خاص ؟

أقادرون نحن يوماً على تشذيبٍ وتهذيبٍ لتلك الغرائزِ العَصِيَّة والنوازع المتمرِّدة ، حتى يتسنَّى لفلاسفة المُثُلِ العليا أن يظفرُوا بالإنسان الكامل ؟

لو أن لنا طاقةً بهذا كلِّه ، لتَمَّتْ المعجزة ، ولأدرك الإنسانيةَ انقلابٌ لا عهدَ لها بمثلِهِ فى عُمْرِ التاريخ .

فى مقدورنا أن نتمثَّل حدوثَ تلك المعجزةِ الكبرى . . .

فليتَ شِعْرِى : أيكونُ ذلك لخير البشرية أم لشرِّها ؟ لازدهارها أم لاِضمحلالها ؟ لبقائها أم لفنائها ؟

لعلَّ أصدقَ الجواب ماجادَتْ به منذُ أربعة عشَرَ قرْناً فِطْرةٌ بدوية ، هى فِطْرةُ الشاعرِ العربىّ « زُهَيْرِ بْنِ أبى سُلْمىٰ » . إذْ يقُول :

وَأَعْلَمُ عِلْمَ ٱلْيَوْمِ والأَمْسِ قَبْلَهُ
ولكنَّنِى عن عِلْمِ ما فِى غَدٍ عَمِى !

ذلكَ الطّفيليّ الفنّان

احتدم النّقاشُ فى شأن الصَّحَفيّ الناجح ، فى هذا العصر :

كيف يكون ؟

وأيُّ المؤهّلاتِ أدعىٰ إلى نجاحه وتبريزه وذُيوع اسمِه ؟

ولم تلتقِ الأفكارُ فى هذا الصَّدَد على رأى واحد ، أو تُجْمِع على نتيجة حاسمة .

فكتبتُ إلى صديق « عزُّوز » ، وهو الذى أفزعُ إلى رأيه كلما أعضلتْ مشكلة ، وحَزَبَ أمر . . . فكان عند ظَنّي به ، وما أسرعَ أن وردنى كتابهُ يُفْتِينِى فى شأن الصَّحَفِيّ العصرىّ الموفّق .

قال — نفعنى الله بعلمه ، وأَخْلانِى من تبِعَةِ فتْوَاه — :

« إليك أيها السائلُ الكريمُ جواب ما سألتَنى فيه . . .

وأُسْلِفُ إليكَ الشكرَ على أن اخترتَنِي لهذه المُهِمَّة . وحسناً فعلتَ ، فمَنْ غيرى خبير بهذه الشئون ، وأنا ربيبُ الصَّحافة ، غذَتْنِي لِبانُها ، وعرَكَتْنِي رحَاها ، فذُقْتُ من عُصارتها الحلوَ والمرَّ ؟

وقبل أن أمْضِيَ فى إجابتك عن سؤالك ، أسترعِى نظرَكَ إلى أن

حديثى سيكون خاصاً بالصَّحَفِىّ الذى تتطلبه مُقْتَضَيات حياتنا الراهنة ، وملابساتنا الحاضرة .

وأما الصَّحفى المثالىّ أو النَّمُوذَجِىّ الذى تمثله الأذهان المتحفِّظة ، ويصوِّره منطق العقل الجامد . فذلك مالا يَرْقَى إليه حديثى إليك . إذ أن هذه الشخصية لا تُصِيبُ فى مُحِيطنا القائم أىّ نجاح .

نظرةٌ إلى بيئتنا ومجتمعنا اليوم تُرِينا أن الأوضاعَ العامَّة والأنظمة المقررة فى مختلف المناحى قد انقلبتْ رأسا على عَقِب . . . ومن الحماقة الحُكْمُ الآنَ على هذا الانقلاب : أعَلَى هُدًى هو أم فى ضلال ؟

وليست الصَّحافة إلا وَلِيدَةَ البِيئَة ، وصورةَ العصر ، ومرآة تنعكس على صفحتها بَدَوَات هذا المجتمع الجديد ونَزَواته .

ومعلوم أن العَمُود الفقرىّ للصَّحافة الحديثة ، هو « الاِستطلاع » . . . فلا بدّ أن تَزْخَر الصحيفة بالاِستطلاعات الطريفة البرّاقة ، وما تشتمل عليه من تعليقات خاطفة على الحوادث الجارية ، وسَبْق فى تقديم أحدث الأنباء والشئون ، على أن يكونَ ذلك فى إخراج شائق جذاب . . وتلك هى أبلغُ العوامل أثراً فى تحبيب الصَّحيفة إلى القارئ ، وفى إغرائه بما تَزُفُّه إليه من زاد .

وإذن فقدرة الصحفىّ الحديث هى براعته فى التقاط هـذه « الاِستطلاعات » ، والتفنُّن فيها ، واستجلاء دقائقها المحبَّبة التى تثير الاِنتباه ، وتَرْوِى ظمأ الفُضُول . . .

إذا قلتَ : صحفىّ حديث ، ابنُ يومه ، وكُفْءُ عصره ، فقل :

طُفَيْلِيّ فنان ، يُرْضِي بما يقدِّم لنا من استطلاعه نزعةَ التطفل الكامنةَ في نفس الإنسان !

ولا يَتَسنَّى لِطُفَيْلِيٍّ أن يُظْهِر عبقريته ؛ ويُؤدِّيَ مهمته ، إلا إن أُوتِيَ شهيَّةً سَمْحة ، ومَعِدَةً هضُوما . فهو يقبل على مختلف الألوان ، وأشتات الطعوم ، لا تأبَى نفسُه منها أيّ لون ، ولا تَضِيق بأيّ طعم . .

فكذلك الصحفيّ الذى هو المثلُ الأعلى للطفيلية الفنّانة ، لابد أن يكون واسعَ الصدر ، رحيبَ الأفق ، حاضرَ الحِيلة ، خفيفَ الحركة ، رَكينَ الأعصاب ، يرتادُ مجامعَ الناس ، وأنديةَ الطبقات ، لا تَكْبُرُ نفسُه عن أدنى مستواها ، ولا تصغُر عن أعلى ذِروتِها . .

فهو في بواكير النهار تَلْمَحُه مُنْدَسًّا بين ثُلّةٍ من رجال الشُّرْطة ، يحاول أن يتشمَّ أنباء فاجعةٍ تمخّضَ عنها الليل . .

ولا يكاد ذلك الطفيليّ البارع يُشْبِعُ نَهمَه ، حتى تراه قد احتواه سرادق فخم ، في أقصى المدينة ، لِلاحتفالِ بوضع حجر الأساس في مُنْشَأَةٍ جديدة ، حيث يتوافدُ الكُبَراء من أهل الحَلِّ والعَقْد . فإذا هو واقف يترصَّد للصيد . . وما هي إلا أن يُنْشِبَ مخالبه في الفرائس ذاتَ اليمينِ وذات الشمال ، يقتطع ما وسعه أن يقتطع ، ولا يلبثُ أن يزدردَ غنائمه على عجَل !

وسرعان ما يتركُ الحفلَ إلى أقرب « تلفون » فيصبُّه سوطَ عذابٍ على عباد الله الآمنين ، يَضْمَنُ لنفسه موائدَ جديدة تحْفِل بألوان شهية من طرائف الأخبار والموضوعات .

ويَظَلُّ صديقُنا الطفيليّ جاثمًا على « التلفون » حتى يُفقِدَه الأَنفاس .
فيتنحّى عنه متمنيًّا على الله أن تُسْعِفَه الأقدار فى ساعةِ الأَصيل بجنازة حارّة يستكملُ فيها شهواتِه إلى اصطيادِ الغنائمِ من أفواهِ العِليةِ والسَّراة بينَ المُشيِّعِينَ !

وما إن يَنفُضُ عن كتفيه غُبار التشييع حتى يَعجَلَ إلى ارتداء حُلّتِه السوداء الفاخرة ، متأنّقًا متظرّفًا ، ليستقبلَ الواردَ فى حفلة ساهرة من حفلات المجتمع الرفيع . ولا يفتأ يجول ويصول ، حتى يُجْهِزَ عَلَى الصفوة ممن أَلقَى بهم القَدَر فى شِباكِه ، فيغادرَ الحَفلَ يتلمَّظُ فى الطريق !

وبعد ساعةٍ أو نحوِ ساعة تَشْهَدُه أخا سَفَر ، يحمل فى يُمْناه حقيبتَه ، ويتخذ طريقَه إلى القطار ، ليسلمَه فى مَطْلَعِ الفجر عند قريةٍ جَدَّ من أمرِها طارئ عجيب ، لِيتبَلَّغَ فيها بما يتيسّر له من رِزْقِ الله . . .

الطفيلية الفنّانة لاغيرُها ، هى حَجَرُ الزاويةِ فى موهبة الصحفىّ الجديد !
ولهذه الطفيلية الكريمة عناصرُ لا بدَّ أن تتوافر ، لكى تنموَ نموها ، وتُؤْتِيَ ثمارَها طيبات . . .

ولستُ أغلو إذا قلتُ : إن على رأس هذه العناصر المنشودة عُنْصُرَ اللَّجاجةِ السائغة .

فالصحفىّ الموهوب يستطيع أن يُحِيلَ هذه الصفَة البغيضة عنصراً لطيفاً عظيمَ الأثر فى إبلاغِه مآربَه ، دون تنفير ولا استكراه .

وعلى قدرِ استخدام الصحفىّ لهذا الدواء الناجع ، يتوقف نجاحُه فى الحصول على مايريد ، وفيما يريد .

وفى مقدمة العناصر اللازمة عنصرُ التلوُّن اللائق الـكيِّس ، يتخذ الصحفىّ من ضروبه وأفانينه ما يوائمُ كلَّ موقف ، ويلائمُ كلَّ مَقام .

فهو فى طريقه إلى شَيْخ الدين رجل مترمِّت متحفِّظ ، يُنَقِّل بين أصابعه حبَّاتِ سُبْحَتِه فى تمتمة وترتيل .

وما يزال مُتَنَمِّسًا متثعلباً حتى يظفَر من شيخ الدين بكلمة عابرة فى مَعْرِض مجاملة ، فيَصْهَرَها الصحفىّ فى بُوتَقَتِه ، ويخرجها تصريحاً خطيرا فى موضوعٍ دقيق شائك قد يتحفَّظ من مثلِه الغالُون فى الُحرِّيةِ والانطلاق !

وتراه فى مجلس زعيم الحزب نصيراً له ، يتلهَّب حماسة لمبادئه ، وغَيْرَةً على سُمْعته ، وذَوْداً عن مواقفه . وما هى إلا أن يستَلَّ من فم ذلك الزعيم نِثاراً من أحاديث ، فلا يلبث أن يصطنعَ منها مادةَ قنبلةٍ يلْقيها فى الميدان السياسىّ ، تَنْشَبُ بها حَرْبٌ عوَان !

وربما تلطَّف ذلك الطفيلىّ الفنان لِوُلَاةِ الأُمور ، حتى يأذَنُوا له فى زيارة مؤسَّسَة عامرة ، وهو يُظْهِرُ الإشادَةَ بفضلها ، والتمجيدَ لغاياتها ، ولا يكادُ يجوسُ خلالَ المؤسَّسَة ، نافذاً بأنظاره خَلْفَ أستارها ، حتى يُوحِيَ إليه شيطانُه موضوعاً تَبِيتُ به هذه المؤسسةُ بمن فيها فريسةً لأنيابِ القِيلِ والقال .

وأنتَ فربما شَهِدْتَ حريقاً مشبوباً فى ميادين الحياة العامة من سياسية واجتماعية وما إليها ، وسمعت فى أجِيج النار أصواتَ الساسةِ والزعماء والقادةِ يتهاتَرُونَ ويتصايحون . . ولو وقفتَ تدقِّق النظرَ

حولَ هذا الحريق ، لتصيَّد بصرُكَ حتماً صحفياً لبِقا ، وفى يده الذُّبَالَةُ التى أوْقَدَ بها النـــار ، وهو يتسلَّل تسلُّلَ الفأر ، يلتمسُ السبيلَ إلى جُحْره الأمين !

ومن لوازم صديقنا الصحفىِّ المصرىِّ ، أعنى ذلكَ الفنانَ الطفيلىَّ ، لـكى تنفتحَ له الأبواب ، وتهَشَّ له الوجوه ، أن يكون فاخرَ البزَّة ، وجيهَ الطَّلْعة ، عليه طُلاوَة الأناقة ، وسمات الرِّفْعَة . وأن يكون خبيراً بمختلِف الأجواء ، وعلاقاتِ الأُسَر بعضها ببعض ، وما بين الناس من عوامل الشقاق أو أواصر الوِفَاق . حتى يستطيعَ أن يُدِير الحديث على بصيرة وهُدًى ، ويتملقَ الآذان بما تهْوَى . فيكتسبَ الرضا العامّ ، ويأنَسَ إليه الجُلاَّس ، فيبوحوا له بمكنونِ الأسرار والأخبار . . . فلا يترك مجلساً إلا وقد خرَجَ منه بما لذَّ وطاب ، من العَجَب العُجَاب !

ويا صديقى السائل :

لا يَذْهَبَنَّ بك الوهم ، إلى أن هذه الصفات من الهَنَاتِ الهَيِّنات ، ولا يدفعنَّ بك الغرور إلى أن تحكم عليها حكم الأخلاقيين الجامدين الذين يفكرون ويتفلسفون فى مَعْزِلٍ عن واقع العيش وحقائق الحياة . . .

ليست هذه الطفيلية الفنَّانة إلا موهبة عزيزة المَنَال ، يختصُّ بها أفذاذ . إذ لا بدَّ لتوافرها من أن يكونَ صاحبها وافىَ الحظِّ من الألمعيَّة والفطنة ، ومن الإلمام بشتَّى مناحى النشاط الثقافىّ والفكرىّ والحيوىّ فى المجتمع المصرىّ . . .

فَمَنْ شاء أن يكون صحفياً ناجحاً ، فليختبرْ فى نفسه ما أُوتِىَ من موهبة الطفيلية الفنانة .

فإذا قصَّر به الاِختبار ، فليتخذْ له مجالاً غير الصِّحافة ، يوافقُ مزاياه .

وأما إن آنسَ فى نفسه هذه الموهبةَ الغالية الـكريمة ، تزدهر بؤهّلاتها الطريفة ، فليضربْ فى الميدان ، تحدوه الثِّقة والاِطمئنان . .

« عزوز »

ذلك كتاب صديق الذى استفتيتُه ، فأفتانِى بهذا الجواب ، ومَقامُه عندى يَصْرِفُنِى عن مناقشتِه الحساب !

جُنودٌ مجهولون

فى السوق السوداء !

نحن نعيش فى عصرِ انتقال ، نحاول فيه أن نتخلَّصَ من ماضٍ له أثقالُه ومساوئُه ، لنحيا حياةً جديدة نسايرُ فيها ركْبَ الحضارة ، وتتكاملُ فى الفردِ منا شخصيةُ الإنسان المتمدِّن . . .

فهذا العصر الذى نعيش فيه ، هو عصرُ اضطراب وتقلقل بطبيعة الحال . ومن عاش فى عصرٍ كهذا لا يسأل :

ما هى الأوضاع التى يجب أن تزول ؟

لأن أكثرَ الأوضاع حقيقٌ بالزوال .

ولعل السؤال الصحيح يجب أن يكون على هذا النحو :

ماهى الأوضاع التى يَحْسُنُ أن نستبقيَها ، فلا نُعْمِلَ فيها مِعْوَلَ الهدم والانتقاض ؟

على أنه ليس من العسير أن نتصوَّر هذه الأوضاعَ التى يجب أن ندعوَ إلى إزالتها ، فهى كالشوامخ لا تَخْفَى على الناظر . . .

ولكننى أوثر أن أتجنبَ تلك المسائل الكبرى ، وأن أتسلَّلَ إلى الزوايا أنْبُشُ بعضَ ما فيها مما يبدو للعين صغيراً لا خطرَ له ، وإن كان له

فى الحقيقة كبيرُ الخطر . فما أشبهه بالسُّوس يَدِبُّ فى خُفْيَةٍ وعلى مهل ، فيقوِّضُ — من حيث لا ننتبهُ — أركانَ البنيان .

وربما كان أظهرَ ما فى الزوايا ذلك السُّوس الذى نُسَمِّيه « التَّسوُّل » أو الاِستجداء . . .

ولا يُسْرِعَنَّ إلى وهم القارئ أنى أعْنِي أولئك السائلين من الفقراء والمحاويج الذين يطلبُونَ الصَّدَقات ، ممن تَزْخَر بهم أعطافُ الطريق . . .

فالخطْبُ فى هؤلاء على لجاجتهم وإلحاحهم يسير . وإنك لمستطيعٌ أن تختار بين اثنتين :

فإما قضيتَ مآربَهم بِفُلول النقود ، ومنثور الدراهم .

وإما رَدَدْتَهم عنك بالكلمة الخالدة : « على الله ! » . . . والله واسعُ العَطاء !

ومهما يكن من أمر هؤلاء ، فإن فيهم فضيلةً تُكْسِبهُم شيئاً من الاِحترام ، وهى فضيلة الصراحة . فإنهم يواجهونك بالسؤال ، مُسْفِرِين لك عن غرضهم فى غير خديعة أو تَحَيُّل أو التواء . . .

وهم — لاِنكشاف أمرهم — لا يَصْعُبُ علاجهم على أحد . وفى مقدور الحكومة إذا ضاقتْ بهم أن تتخذَ فى شأنهم تدبيراً حاسماً يُخفِّف من وطأتهم ، أو يستأصل شأفَتَهم من الطرقات والسُّبُل ، بأن تريدَ القادرين منهم على العمل ، وتُؤْوِيَ العاجزين فى ملاجئ تَكْفِيهم مئُونَةَ السؤال .

وإن مثلَ هؤلاء المُستَجْدِين جَهْرَةً وعلانية ، كمثل الأسمار الظاهرة

للسِّلَع فى السوق البيضاء ، بِيَدِ وُلاةِ الأمر أن يَرُدُّوا غلاءها ويَكُفُّوا غلواءها بالتسعير الجَبْرِىَ ، يَفرِضُونه بسطوة القانون .

فأنا لا أَعْنِى إذن هذا الصِّنْفَ من السائلين ، وإنما أعنى صِنْفاً آخر ، مثلُه فى الاستجداء كمَثَلِ السوق السوداء فى عُرُوض التجارة !

فذلك هو الصنف الخطر الذى يَنْفُثُ سمومه فى خُفية وتستُّر ، لا تمتدُّ إليه أعين الرقباء ، ولا تناله سلطة الحُكَّام .

والمُستَجْدُونَ الذين أَخُصُّهم بالذكر ، يمكن أن ينقسموا ثلاثَ فِرَق :

الأولى : فِرْقة « التلفونات » .

فقد تكون فى بيتك مطمئناً ، قد أَخْلَدْتَ إلى السكينة ، وأَنِسْتَ إلى قدح القهوة تَرْتَشِفُه ، وإلى اللِّفافةِ تستمرئ أنفاسَها . فما هو إلا أن يصلصل جرَس « التلفون » ، ويستبينَ لك أنك مطلوب للتكلُّم مع رجل من رجالات الدولة ، له خطَرُه ، فتنتفزع متسائلا :

ماذا جرَى ؟ وأىّ شأن يكون ؟

وتنفُضُ عن نفسك مُتْعَةَ الجلسة التى ركنتَ إليها ، وتهيِّئ نفسك للنَّبإ الجلل ، ولا تكاد تتحدَّث بضع كلمات حتى يتوضحَ لك أن المتكلمَ نَكِرَةٌ لا يُبَالِى أن يُقْحِمَ اسم الرجل العظيم فى شأنه ، لِيُحْكِمَ رَمْىَ الشِّباك ، ونَصْبَ الحبائل . . .

وإنه لَيُصِرُّ على توثيق الصلة بين موضوعه وبين ذلك الرجل العظيم ، إيغالاً فى التَّحيُّل ، وتمكيناً للغرض .

وبعد مقدّمات قد تبدأ بعهدِ « آدمَ » ، ينتهى الأمرُ إلى إخبارك بأن رسولا سوف يَقْدَم عليك ليُقدِّم لك سَنَداً بتسلُّمِ مَبْلغ من المال ، مُدَّعيا أنه سيُنْفَقُ تشجيعاً لمشروع إنسانىّ رفيع ، أو تأييدا لقضية قوميَّة عزيزة ، أو تكريما لشخصيَّة لها فى النفوس مقام . . . !

الثانية : فرقة الأبواب .

وهى جماعة من الناس يحاصرون أبوابَ الدُّور ، ويختارون لذلك أوقاتا لا مَفرَّ لأصحاب هذه الدور من أن يلقَوْهم فيها مُراحاً أو مَغْدًى .

وجنودُ هذه الفرقة ينْقَضُّون على فرائسهم انقضاضَ الباشِق على غَنِيمته ، باسطينَ أيديَهم بمختلِف الصُّكوك عليها الأختامُ الملوَّنة ، والإمضاءات المُطَلْسَمة ، يتقاضَوْن بها أجورا لحفلات تقام فى رُءوسِ مُدبِّريها ، وَقِيمَ اشتراكات فى صُحُف لن تُنْشَر إلا يومَ النُّشور إلى غيرِ ذلك من أفانينَ تتهافَتُ حولها أطماعُ الكُسالَى ، فيتخذونها شَرَكاً لِابتزاز المال !

الثالثة : فرقة الطُّرق والمسالك .

وهذه الفرقةُ مُدرَّبة على أحدث الأساليب . فهى متفقة فيما بين أعضائها على توَزُّع الطرق ، لكل فردٍ منها مِنْطقةُ نفوذ ، هو فيها الحاكم المتسلِّط ، والسيفُ المُصْلَتُ على رِقاب السالكين من عبادِ الله !

تَلمَحُه من بعيد ، فتراه يخطو خُطى الشُّرْطيّ المَهيب ، متخذاً شارةَ الإمارة والاعتزاز .

ويُقْبِلُ عليك ليطالبك ، كأنه رقيبُ الحدود ، أو حارس التُّخُوم ، يتقاضاك المُكُوسَ وضرائبَ المرور !

فهو يتحدَّث إليك حديثَ رجلٍ يؤدى واجباً رسمياً يستند فيه إلى قانون ودستور .

وجنود تلك الفرقة يتخذون عُنْصُرَ المفاجآت العجيبة ، والكوارث النادرة ، فيجعلون أنفسهم من صرْعاها ، فى التوِّ والساعة .

ولهم فى هذا الباب أقاصيصُ ، وروايات مُحْكَمة النَّسْج ، بليغةُ الحِوار ، قوية الخيال ، أعترف لها بالفوْق والامتياز . . .

وإنى لأتمنّى أن تَستَغِلَّ هذه الفرقُ الثلاثُ نشاطَها ومواهبَها فى مضمار غير هذه المضامير ، سعياً إلى مَجْدِ العمل ، وشَرَفِ الكسب ، وكرامةِ الإنسان !

قصرُ الأحلام

المَعْرِض الزِّراعىّ الصِّناعىّ الذى رأيتُه هذا العامَ ، هو فى حقيقة أمرِه مَعْرِضُ « الحالِ » ، أو مَعْرِضُ « الحاضِرِ » . .

لقد حَفَلَ بزُبْدَةِ ما بلغتْه حضارتُنا الصناعية والزراعية والاقتصادية ، مصوَّراً فى تلك القُصور المُشيَّدة التى احتوتْ نماذجَ هذه الحضارة على نحوٍ أنيق .

فذلك المَعْرِض يُعَدُّ بحقٍّ مرآةً مجلوّةً ليومنا الراهن ، وحياتِنا الماثلة . ولسنا نَجْحَد قدرَ الجهود التى بُذِلَتْ فيه ، ولا ننكر ما يدلُّ عليه من سلامة ذوق ، واستقامة تفكير .

ولكن اعترافنا بهذا الفضل لا يحول بيننا وبين أن نسأل :

أليس « الحاضرُ » قريبَ المَنال منا ، نستطيع أن نتعرَّفه ، بعضه أو كله ، فيما حولنا ، وقتما نريد ؟

وهل « الحاضر » هو وحدَه الذى تصبو النفوسُ إلى تعرُّفه وتصفُّحه ؟

ثَمَّةَ جانبٌ خطير من جوانب حياتنا الفكرية ، لم يكنْ له نصيب من عناية المَعْرِض العتيد .

ثَمَّةَ جانب رفيع تَكْمُن فيه الأمانىّ والأحلام ، وتحوِّمُ فيه

أسرابُ الأخيلة والأفكار ، كان من أكبر أمانينا أن نرى له فى رِحاب المَعْرِض أكرمَ مقام .

ذلك هو جانب « المستقبل » ، أو « الغد » . . .

كيف غَرَبَ عن بال القائمين على المَعْرِض أن يَفْسَحوا مجالا لقصر عظيم ، يطلقون عليه : « قصرَ الأحلام » ؟

فى هذا القصر يتجلَّى ما يَجِيشُ فى السرائر والأذهان من رغائبَ ومطالب ، هى وليدةُ التصوُّرات والأمانىّ . . .

فى هذا القصر تَبْرُز معروضات نَمُوذَجِيَّة لما تهفو إليه القرائح والعبقريات ، فيما يكون عليه مستقبل « مصر » القريب أو البعيد . . .

أين نَمُوذَج الحياة الريفية كما يتمثلها المُصْلِحُ الاِجتماعىّ الذى يدعو إلى تجديد الرِّيف ، ويَنْشُدُ للفلاَّح رُقيًّا ونهضة ؟

أين نَمُوذَج الحياة التعليمية على النَّمَط الذى يَلُوحُ فى مُخيِّلَةِ المُربِّى المِثالىِّ ، حين يتغَنَّى بما يجب أن يتحلَّى به الطالب ، حتى يكونَ منه المُوَاطِنُ الصالح ؟

أين نَمُوذَج الاِستغلال الاقتصادىّ لكنوز « مصر » المجهولة ، وثرواتها الضائعة ، فنرى بقعةً من الصحراء قد استحالتْ — بمشروعٍ عملىٍّ طريف — قطعةً من أرضٍ خصيبةٍ تُنْبِتُ أطيبَ الثمرات ؟

أين نَمُوذَج التفطُّنِ إلى الاِنتفاع بخصائص المُوَاطِن المصرية التى تجعل هذا البلد مَحَجًّا للسُّيَّاح ، مثل جبال « سينا » التى يُمْكِنُ أن تكونَ مشاتِىَ تبلُغُ الأوْجَ فى طِيبِ الهواء ؟

أين ؟ وأين ؟ ثم أين ؟ . . .

ما أجدرَ أن يكونَ « قصرُ الأحلام » ألمعَ جوهرةٍ في تاج المَعْرِض، تَتضوّأُ منه أشعةُ النفسيّة المصرية في تطلّعها إلى التحضُّر، وتوثُّبِها للعلاء !

لم يكن يُعْوِزُ القوّامِينَ على المَعْرِض، لتحقيق تلك الفكرة، إلا أن يُجَرِّدُوا حملةً من أصدقائنا الأعزّاء، أعني الصحفيين الذين يتولَّوْن الاستطلاعات، فإنهم أقدرُ على محاصرةِ ذوي القرائح النيِّرة من النابغين في الطبِّ والهندسة والزراعة والاقتصاد . . . وإنهم ليعرفون كيف يَحفِزُون هؤلاء جميعاً على البَوْح بمكنون عبقرياتهم في التخيُّل والتمنِّي ... وإذن يكون من الميسور على الفنانين أن يُمثّلوا هذه الأمانيَّ في نماذجَ مصوَّرة، وأمثلةٍ مجسَّدة، يتألفُ منها في صَدْرِ المَعْرِضِ: «قصْرُ الأحلام» !

أتهم الأدباء

الأمةُ إلى الأمامِ تسير .

فِئاتُها تعمل ، ولا تفتأ تعمل .

وها هى ذى الأُسس تَرْسُخ ، والدعائم تُقام

هى نهضة تنتظم جوانبَ المجتمع ، ومختلفَ مرافِقِه .

وليس الجانبُ الثقافىّ بأهونِ الجوانب حظًّا من النهوض .

إنه يؤسِّس ويَبْنِى . . . ففى ضروب الثقافة نجْنِى من المطبعة ثِمارا فى الترجمة أو التأليف ، تَشْهَد بنُضْج القرائح ، وبراعة الأقلام .

مِصْدَاقُ ذلك أن نِتاجَنا الثقافىّ فى عشْر السنوات الأخيرة وَحْدَها ، ربّما يَعْدِل نظيرَه فى أعوامٍ خمْسينَ تقَضَّتْ قبلَ هذه السنين العشْر .

وما كان لتلك النهضة الثقافية أن تقومَ دوْلتُها والبلدُ رَهْنٌ بإرادة الأجنبىّ المسيطِر . فكلما استرجعنا من حريتنا السياسية شيئا ، تَراحَبَ أمامنا أفقُ العمل ، وتوافرتْ لنا أسبابه .

حقًّا أتاحت لنا الحريةُ السياسية فرصةَ السعى المُثْمِرِ فى الميدان الثقافىّ .

ولكن !

لكلّ نهضة من مختلف نهضاتنا الاجتماعية قَيْد يتمثل فى كلمة «لكن»

ولـكن يبدو أن الحرية السياسية التى استكملناها فى الميدان الثقافىّ ، تلك الحرية التى أذابتْ فى بُوتقتِها كثيراً من السلاسل والأغلال ، لم تـكنْ هى الحريةَ فى أتمّ معانيها .

هنا لك حرية أخرى ظلتْ بعيدة المَنَال منا ، حريتنا فى دخائل نفوسنا التى لايَشْرَكُنا فى مِلْـكِها أحد ، تلك هى حرية العقل والوِجْدان .

فهل وُفِّق الأديبُ إلى أن يحطِّمَ الأغـلال التى تقيِّد نفسَه ، وتَحْـكُم مشاعره ؟

أمامك عدوّ شاخص ، فى مُكْنَتِكَ أن تُناجزَه وأن تغالبَه ، لأنه يتراءى لك واضحَ المعالم ، ويكاشفك جَهْرَةً بالعداء . فإذا شئتَ أن تَطْعُنَه تسنَّى لك أن تُسَدِّد الطعن . . . فهذا أيسرُ أعدائك حربا ، وأهونُهم شأنا !

أمّا ذلك العدو الخفىّ السارب فى حنايا نفسك ، السارى فى أوصالك مَسْرَى الدَّمِ فى العروق ، حتى لـكأنه بَضْعَة منك ، شائعةٌ فيك ، فذلك هو العدوّ العتِىُّ الذى يتطلَّبُ قتالُه منكَ جهادَ الأبطال !

إنك قد تُحِسُّه فى نفسك ، وقد تتبينُ مكانه منك ، ولـكنك حين تبْغِى استئصالَه تتخاذلُ وتَهِنُ قُواك ، إذ تَشْعُر بأنك تنتزعُ جزءا من كِيَانِكَ الحىّ . . .

ربما كنتَ مؤمنا بأنه عدوّ لك جدير أن تُناوِئَه ، حتى تخلُصَ من أذاهُ ، فلا يقفَ فى طريقك حَجَر عَثْرة ، ولا يحولَ بينك وبين المُضِىِّ إلى الأمام . . .

بَيْدَ أنك لا تلبث أن تَجْبُنَ عن مصاولته ، لما تُحِسُّه له من وشائجِ قَرابة ، وأعراق أُلفة . . . وإذا أنتَ منتحلُ كواذبَ المعاذير ، فتوهِمُ نفسَك أنك قادر على تلافِى أذاه ، وتطويعِ قيادِه ، وتظلُّ تحاول وتحاول ، إلا أنك تبُوءُ من محاولاتك بالإخفاقِ بعد الإخفاق !

هذا العدوّ الحبيب ، هذا الداء الدَّفِين ، هو ذلك التُّراثُ الثقيل من قواعدَ وأُصول ، ومن قوانينَ وأحكام ، ومن عاداتٍ وتقاليد . . .

كان هذا التراثُ أزاهيرَ نَضَرَتْ فى عهودٍ غوابر ، فتحدَّرت إلينا من مختلف عصورها وأحقابها ، حتى وَشَجَتْ فى قرارات نفوسنا جذورا يابسة لا رَوْنَقَ لها ولا عطر .

ما أشبهَ نفوسَنا بتربة طيِّبة فى جوهرها ، لا تُعْوِزُها عناصر الخِصْب والازدهار . إلا أنها أصبحتْ على تعاقُبِ الأزمنة صُلْبَةً مستمسكة بجذورها المتحجِّرة ، لا يزْكو فيها نبات جديد .

فنحنُ أحوجُ ما نكون إلى مِحرَاثٍ ضخم ، حديدِ المخالب ، تُثَارُ به تلك التُّرْبَة ، فيُقَضُّ مَضاجعَ تلك الجذور . . .

نحن أحوج ما نكون إلى أن نضربَ بذلك المِحْراث ، حتى يبلغَ الأغوار ، حاملاً إليها نَفَحاتٍ من الهواء ، وفُيُوضاً من الماء !

وهل المحراثُ إلا عزيمة وجُرْأة ؟

فهل توَافرَ للأدباء أن يكونوا عزَّامِينَ جُرَءاء ؟

نحن الأدباء نَمْضى فى ميداننا الثقافىّ بحريَّة منقوصة تمنعنا أن نقفزَ طُلَقاءَ حيثُ نشاء . . .

ثمّة أصفاد تُثْقِلُ أقدامَنا ، وتعُوقُ خُطَانا . . . فإذا ما عَنّ لأحدِنا أن يَثِبَ وَثْبَةً جريئة ، عَضّتْه الأصفاد ، فوقفتْ به حيثُ كان .

نحنُ الأدباء نسير ، ونتابع المَسِيرَ .

ولكننا نسير صفًّا كأننا سُجناء متعاقبون ، موصولةٌ أقدامُهم بالسلاسلِ والأغلال .

كلٌّ منا يسير . . . أمامَه رفيق وخلفه رفيق ، فهو يخشاهما ، وهما يَخْشيانِه .

كُلٌّ منا يَنقُلُ خطاه ، وهو يفْرِضُ رِقابتَه على من تقدّمه ومن تأثّره ، ويَحْسُبُ حسابًا لرقابتهما عليه .

فنحن جميعًا سَجّانُون مسجونون !

سَنَظَلُّ فى هذا الصَّفِّ الموصول أرِقّاء ، حتى يَنجُمَ بيننا عبقرىٌّ فذٌّ ، يَبْطِشُ بطشتَه بقدمه الجبّارة ، فيحطِّمُ تلك السلاسل الغِلاظَ ، ويثبُ من الصفِّ ليضربَ فى الميدان ، فلا يلبثُ الجمْعُ أن يستشعروا رُوحَ الطلاقة والحرية تَشُقُّ بهم جديدًا من الآفاق !

الأدَبُ الرفِيعُ

هل تسيء إليه الإذاعة و « السينما » ؟

منذ انبسَطَتْ تلك الستارةُ البيضاء تَعرِض الصور المتحركة التى نسميها « السينما » ، ومنذ تجاوبتْ الأرجاء بالأصوات ، منطلقةً من تلك الأداة التى تُسَمَّى « الرَّدْيو » ، جعل المفكرون وذوو الرأى يضربون جباهَهم بأيديهم ، وهم يتساءلون :

هل تُسِيء الإذاعةُ و « السينما » إلى الأدب الرفيع ؟

لقد طالما جرَت فى هذا الشأن أحاديث المجالس ، ومناقشات الأندية . وانفردتْ ببحثه مقالات فى الصحف والمجلات . بل لقد عَقَدَ له بعضُ المؤلفين فصولاً فى كتبهم التى تتناول بالدرس قضايا الفكر والأدب .

وكان طبيعيًّا أن يكونَ مَثارُ هذه المسألة فى الشرق ، متأخراً كلَّ التأخُّر عن ظهورِها فى الغرب ، فإن الغربَ هو السبَّاق إلى استخدام المختَرعات الحديثة ، ومظاهرِ الحضارة الجديدة .. يُصِيبُ خيْرَها ويكابدُ شرَّها على السواء !

على أن هذه المسألة نفسَها جانبٌ من مسألة شاملة ، هى الإشفاقُ على الفنون كلِّها من عصر الآلةِ على وجه عام . فإن المفكرين وقفوا

ينظرون إلى الفنون نظرة خشية وتحسّر ، منذ ابتدأت المخترعات الآلية تستبدّ وتعتزّ ويقوم لها سلطان .

ألم يكن للآلات المصوّرة أثر فى الرسم بالمِرْقم ، ضجّ منه فنانوه ؟

ألم يكن للحاكى أثر فى الغناء والمغنّين ؟

حقًّا كان لهذه المصانع التى تخرج الآلات قوالبَ متكررة ، أعمقُ الأثر فى الأعمال التى يقوم بها الصانع الفنّان ، ويسكُب نفسه فى كل وَحْدَةٍ من وَحدَاتِ عمله الفنىّ .

ولكن ماذا كنّا نبغى ؟

أكنا نتمنّى أن تتعطّلَ الآلة ، ويَبْطُلَ نفعُها المجتمع البشرىّ ؟

كلا ، ما كان ذلك ليدورَ فى خَلَدِ أحد . فإن هذا المجتمعَ فى عصره الراهن مَدِين لتلك الآلة بما سَما إليه من تحضُّر ، وما توافر له من رَفاهِيَة .

وما دامتْ الآلة ليس منها بُدّ ، فلنا أن نسأل :

هل يَفْقِدُ المجتمع فى عصره الآلىّ فنيّتَه ؟

هل يُحْرَمُ عنصرَ الفنّ الرفيع ؟

المنطِق الحقّ يدعونا إلى القول بأنه لا فِقْدان ولا حِرمان ، ولكن فكرة ذلك الفن الرفيع يدركها من التطوّر ما أدركَ المجتمع الحديث ، فيكون لها طَوْعاً لمقتضيات الآلة لون جديد ، وتستقرّ على وَضْعٍ غير ما تُعُورِفَ من أوضاع .

فإن كان الأمر كذلك ، فأىّ أثر تُلْحِقُه الإذاعة و« السينما » بأدبنا الرفيع ؟

إلى أيّ مدى تتغير أطوراه ، وتنقلب أوضاعه ؟

هل تقْضِي الإذاعة و «السينما» على ذلك البناء الشامخ الذى تعاونتْ على دَعْمِه القرونُ والأحقاب . . . أعْنِي به : « الـكِتَابَ » ؟

كان « الـكِتَابُ » وليدَ البيئة التى لابَسَتْ عصره ، وكان طابعًا للعهد الذى أنْجَبَه . بل قل إنه كان ضرورةً من ضرورات الطَّور الذى عاش فيه المجتمع وما زال يعيش .

أليستْ خصائصُ « الـكِتَاب » هى اتخاذ الوصف والشرح والتحليل وسيلةً إلى نَقْلِ الأفـكار ، والترجمةِ عما يتخالجُ النفوسَ من عواطفَ ونزعات ؟

أو ليست هذه الخصائصُ تُمَثِّلُ حاجةَ المجتمع البشريّ إلى ذلك المَنْحَى من التعبير ؟

« الـكِتَابُ » إذن أداةُ عصره فى التواصُلِ الاجتماعى ، وأسلوبُ زمنه فى التعبير الفـكريّ .

فهل يَطْوِى المستقبلُ جنبَيه على نِيَّةِ الاِستبدال بتلك الأداة ، والتغيير لذلك الأسلوب ؟

أفى مُسْتَطَاعِ الإذاعة و«السينما» أن تطوِىَ صَفْحَةَ « الـكِتَاب » فى يومٍ قريبٍ أو بعيد ؟

مهما يكن من أمر ، فلا حقَّ لنا فى خشية ولا إشفاق ، ولا عذرَ لنا فى الوقوف أمام « الـكِتَاب » نَنْدُبُ مصيرَه المَخُوف !

حَسْبُنا أن نقف من الإذاعة و « السينما » موقف السائل :

هل يحفظُ لنا ذلك النحوُ الجديدُ من التعبير نشاطَنا الذهنيّ ؟ وهل يَحِلُّ محلّ « الكتاب » فى مواصلة التفكير البشريّ ؟

إذا نجحتْ الإذاعة و« السينما » فى أن تكونَ أداةً أمينةً صادقة لبَسْط الخواطر ، وعَرْض الأفكار ، فلا ضَيْرَ على فنيّة الأدب مما يكون ، فإن « الكِتَابَ » حين يزول على هذا النحو أو يضمحلّ ، فإنما يَلْحَقُه ذلك بوصفِه ثوباً من الأثواب ، وصورةً من الصور ، وزيّاً من الأزياء .

وهل « الكتابُ » إلا ثوب أو صورة أو زِيّ ؟

من التَّغَالِى فى التقدير أن نُنْزِلَ « الكتاب » تلك المنزلةَ من التقديس ، فنقولَ بأنه عماد التفكير والتثقيف والتفنّن ، إن انْتُقِصَ قدره ، أو انْتَسَخَ ظلّه : فلا فنَّ ولا ثقافةَ ولا فكر .

إذا اتخذ التفكير البشريُّ تَرْجُماناً له ، يُطابِقُ الجديدَ من عصره ، فقد جَرَى على نَهْج طبيعىّ لا يَرْتَقِى إليه نزاع . فما كانت الأدواتُ والوسائط يوماً خالدة على الزمان ، وما ينبغى لأداةٍ واحدة أن تَبْقَى على ترادُفِ العصور ملازمةً للإنسان !

المُعَوَّلُ كلّه على الجوهرِ وحدَه ، والجوهر فى الأدب الرفيع هو الفكر والعاطفة . فأما أداةُ التعبير فهى مظهر من المظاهر ، وعَرَضٌ من الأعراض ، لا يَأْسَى على تبديلِه من سَلِمَ له الجوهر ، وخَلَصَ له اللُّباب .

لاريبَ فى أن كُلاًّ من الإذاعة و« السينما » سوف تَطْبَعُ الأداء الفكرىّ بطابَع يلائم مقتضياتها ، وسيَجْرِى هذا الطابع على سُنّة التطور ، حتى ينتهىَ إلى أصول مقررة ، هى زُبْدَةُ التجارب ، وخلاصةُ المُزاوَلات .

لا مبالغةَ فى القول بأن الإذاعةَ سيكونُ لها فى توجيه الأدب نحوٌ جديد ، بل سيكونُ لها مِثلُ هذا التوجيه فى مختلِفِ الفنون ، وسيكون هذا التوجيهُ وَفْقاً لطبيعةِ الإذاعة فى مخاطَبةِ الأصوات للأسماع .

وكذلك الأمرُ فى « السينما » . . .

ليَكُونَنَّ لها هى الأخرى مَنْحىً يَخْتَصُّ بها فى التعبير الأدبىّ والفنىّ ، وليَكُونَنَّ هذا المَنْحَى وَفْقاً لطبيعة « السينما » فى مخاطَبةِ المَشاهِدِ للأنظار . .

إليكَ مثلاً مما يمكن تقديرُه من أثر الإذاعةِ فى الأدب :

ذلك الكاتبُ الذى يَصُوغُ رأيَه فى فِقَرٍ محبوكة ، وجُملٍ مُحْكَمَة ، أو يُلْمِعُ إلى فكرته إلماعةً مجازيةً خاطفة ، مُتَّخِذاً لذلك فنونا من أقيسة المَنْطِق ، وبدائع البيان ، أتُرَاهُ حين يكتب لِيُلْقِيَ ما كتبه فى الإذاعة راضياً عن ذلك الأسلوب ؟

ألستَ تحْسَبُه منتهياً عن ذلك التعمُّقِ فى التفكير ، والتأنُّقِ فى التعبير ، مما يتطلَّبُ موالاةَ التمعُّن والتفطُّن والمعاناة ، ومعاودةَ القراءة مرةً بعدَ مرة ؟

ألا ينتهجُ المتحدِّثُ فى الإذاعة منهجاً آخرَ يجتمع فيه وضوحُ المعنى ، ودقةُ المدلول ، وسرعةُ انتقالِ الأفكارِ إلى الأسماعِ بلا انقطاع ؟

ودونَكَ مثلاً آخرَ مما يمكن تقديرُه أيضا من أثرِ « السينما » فى الفن القصصىّ :

ذلك القصَّاصُ ، حين يَمْضِى فى الكتابة ، لا يجد مَفيضاً من الوصف

للأشخاص ، والإبانةِ عن المشاهـد ، والتوسُّع فى تحليل خَلَجَات النفوس . . .

فأما حينَ يضع الخطَّة لقصته السينمائية ، فإنه يكتفى برَسْم معالمَ أساسيَّة يستهدى بها « المُخْرِج » . وإن ظهورَ الشخصيةِ أمام النَّظَّارة يُنْهِى إليهم فى لمحةٍ عابرة أدقَّ صورة لما يقرءونه فى صفحاتٍ طِوال ، وإن تأثُّرَهم بما يَشْهَدُون من هذه الشخصية ، ربما زاد على تأثُّرِهم بالقراءة وإن طالَ مداها .

وكذلك الشأنُ فى التحليـل النفسىّ للأشخاص ، فإن المَشاهِدَ السينمائية فى حركاتها اليسيرة ، ومواقفَ الممثلين بعضهم من بعض ، وما يَتَّسِمُونَ به من مَعالِمَ ، وما يُبْدُونَه من إيماءات وإشارات . . . كل ذلك خليقٌ أن يَقُومَ مَقَامَ الإفاضة فى الشرح ، والإيغالِ فى التحليل .

أَضِفْ إلى ذلك أن ما تتطلَّبه القصة من عنصر وِجْدانىّ ، وجَوٍّ شِعْرىّ ، لا يتعذَّر على الفنّ السينمائىّ أن يجلُوَهُ بألوان من المناظر ، وإيقاعاتٍ من الموسيقىٰ ، يُغْنِى غناءَ المناجاةِ بالقول ، والتغنِّى بالوصف .

ولقد شَهِدْنا فنًّا من الإخراج السينمائىّ يحاول إبرازَ الخوالج النفسية ، واللَّمَعات الذهنية ، فى مشاهدَ لا يستَعْصِى فَهْمُ مدلولها على الناظر . . .

وإذن فهـذه « السينما » ، وتلك الإذاعة ، تحاول كلتاهما وَضْعَ

أسلوب مبتَكَر لفنِّ الأَدب ، وخَلْق أداةٍ جـــديدة للتعبيرِ عن الحياة . . .

وحجةُ الإذاعة و « السينما » فى اتخاذِ كلٍّ منهما لما تحاولُه ، أنهما تسايران التطوُّر الراهن للمجتمع البشرىّ ، وتطاوعان رُوحَ العصر الذى يعيش هذا المجتَمع فيه .

وتلك حجةٌ لا يَثبُت أمامَها خصْم ، ولا يُفْلِحُ فى نقْضِها بيان !

جَزاءُ الفنَّان

للأدب والفن بواعثُ من باطنِ النفس ، والكثيرُ من هذه البواعث إنما هو مواهب تُفاضُ على المرء ، لا يعرف لها مأتَى ، ولا يَملِكُ لها دفْعا . . .

فالأدب والفنُّ فى بعض عناصره موْهِبةٌ ، إلى جانب أنه دراسة وممارَسة . فكيف تنْصَح لأديبٍ موهوب أو فنّان موهوب ألّا يشْتغِلَ هذا بالفنّ وذلك بالأدب ؟

إنك إن نَصحْتَ لهما بذلك ، فأنتَ تريدُهما على كَبْتِ المَوْهِبة ، ولا ثَمَرَة لمثل ذلك النُّصْح إلا الضَّيْعَةُ والإهمال ، لأنك تطابُ أن تُطَاعَ على حينِ أنك تأمر بما لا يُسْتَطاع .

فلسوفَ تظهر المَوْهِبَةُ لا مَحالَةَ ، ولسوف تلتمس المَنْفَذَ ، مهما تَقُمْ فى طريقِها من حوائلَ وسُدود .

وقد طالما تعالَتْ شكوى الأَديب والفنان ، يَنْعَى كلاهما حظَّه من التقدير . . فأىُّ تقدير ذلك الذى تتعالَى منه الشكوى ؟

يُخيَّل إلىّ أننا نَخْلِط بين نوعين من التقدير :

أحدِهما : معنوىّ ، والآخر : مادّىّ .

وعندى أن الأديبَ والفنان لا تعوزهما أسبابُ التقدير المعنوىّ ، ففى البلد على أيّة حال طبقة من أهل الفكر والرأى ، وذوى الثقافات والأذواق . . . ومن هؤلاء يتألّف رأى عامّ تتوافر له أسبابُ الموازنَة بين الألوان والأفانين ، ويستطيع التمييزَ بين الطيّب وغير الطيّب ، إلا إذا تسللتْ عواملُ شخصية تتعرّض بها الأحكام لتيّارات الأهواء ، فإذا هى مجاملَة ودِهَان ، أو خُصومة ولَجاج .

وأما التقديرُ المادىُّ فيجب أن يكونَ ماثلا للأذهان أنه يخضع لدوافعَ وملابسات لا صلة لها بأدب ولا بفنّ ، فهو طوْعُ قانون العرض والطلب ، ذلك القانون التّجارىّ المنتزَع من حقائقِ المجتمع ، الذى لا يحتملُ المجادَلَة والخلاف ، ولا يُلقِى سَمْعًا للمكابرة والعِناد .

ومَدْخَلُ قانون العَرض والطلب فى التقدير المادىّ للأدب والفن أننا مازلنا أُمّةً قليلاً من يقرأُ فيها ومن يكتب ، قليلاً من يتذوّق فيها ثمرات الفنون . وأن القراءةَ والتصفُّحَ والمشاهدة للأعمال الفنية والأدبية مقصورة كلُّها أو تكاد على عُشّاق الفن وهواة الأدب . فكأن الأديبَ يكتبُ لأديب مثلِه ، وكأنّ الفنان يُصوِّر أو يَرْسُم أو يَنْحِتُ لفنانٍ على شاكلته .

ولو كتب الكاتب وأنتج الفنّان لسائرِ طبقاتِ الأُمّة ، وأقبلتْ هذه الطبقاتُ على الأدب والفنّ تستوْفِى منهما زادَها ، لألْفَيْنا الكُتّاب والفنّانين راضِينَ أجملَ الرضا بما يُتاح لهم من كَسْبٍ طيب ، ورزق موفور . . .

وإنى على الرغم من ذلك كلّه أنصَحُ بالاشتغال بالأَدب والفن ، لأن الأَدبَ والفن كليهما ضرورة من ضرورات الحياة ، وحاجةٌ من حاجات المجتمع . وهما سِمَة من سِمَات الإنسان المتحضّر ، وليس واحد منهما بحِلْيةٍ وزينة يمكن الاستغناء عنه ، أو يمكن الاتجاهُ به إلى فريقٍ دون فريق .

ومتى كُلّلَتْ الدعوةُ إلى تعشُّق الفن والأَدب بالنجاح المنشود ، نشأتْ بيئة أدبية فنية ، متعارِفة متعاطِفة ، وقامتْ سُوق للأَدب والفن رائجة . وفى ذلك حفز إلى التنافس فى التجويد ، وإغراء للنفوس بالإقبال .

على أنى أنْصَحُ لمن يأنسُ فى نفسه نزعةَ الأَدب والفن أن يكون بصيراً بموقفه ، على بيّنة من أمره ، غيرَ مخادِع نفسَه فيما يبتغِى من غاية ، ثم يشقّ الطريقَ ليستبينَ حظّه ، ويمارسَ من التجارب ما يَنْفِى عنه آفةَ الجمود .

وإن فطنتَه فى ممارسة التجارب المختلفة ستَقِفُه على ما خَفِىَ عنه من مواهبه الكامنة ، وستُبَصِّره بالجانب الذى هو أهلٌ أن يَبْرعَ فيه ، تصديقاً للحكمة الخالدة : كُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له .

وعلى من يَنْشُد الكسْبَ والاغتنام أن يتوخى فُرَصَ الإقبال ، وأن يتعرّف وسائل التأثير ، حتى لا يتورّطَ فى خيبة وإخفاق كان فى مُكْنَتِهِ أن يتفادَى منهما ، إن أيقظَ فطنتَه ، وجدّد تجربتَه ، وتنكّبَ عن الطريق الذى سلكه .

فأما من طلبَ الفنَّ وحدَه ، خالصاً له ، فليقدِّمْ زادَه ، بوحيٍ صادق من نفسِه ، وباعثٍ قويّ من حسّه ، لا يرجُو عليه مِنْ جزاء . . .

مجلسُ "الدبّاغ"

كنتُ كلما حزَبني ضيق من صخَب هذه الحياة وماديّتها الجافّة ، وما يُغشِي العينَ فيها من وَهَج زائف وبهرَج باطل ، فزِعْتُ إلى قلب المدينة الأصيل ، حيثُ الحياةُ فى بعض أركانه ما زالت محتفظةً بذلك الطابَع الرُّوحىّ الرَّخِىّ ، طابع الشرق فى عهده القديم ، فأتنسَّم منه عِطراً زكيًا يَسْبَح بى فى آفاق من السكينة والهدوء ، وأحلام كلُّها رَوْح ورَيْحان . . .

فكنتُ أطرُق تلك الدروبَ والمسالكَ الضيقة التى تكاد دُورُها تتواصل وتتعانَق فى أُلفَة ووئام ، فأجوزُ بحوانيت العطور والسُّبَح والمَباسِمِ وما إليها من الطرائف والتُّحف الشرقية الصميمة ، ينفحُ منها ريّا العصور السوالف ، وتتراءى فيها أطيافُ الذكريات العِذاب . فيُخيَّل إلىّ وأنا أجوس خلالَ هذه المسالك والدروب كأنى فى مدينةٍ من مدائن التاريخ الشرقىّ العتيق ، تتخايلُ فيها أشباحٌ تغدو وتروح فى ملابسها الفضفاضة وعمائمها المُهنْدَمَة ، وهى تُرسِل نظراتِها هادئة طيبة تَنمُّ عن سرائرَ صافية ونيّات كريمة وكأن تلك الأشباحَ ليستْ إلا شخصياتٍ محبّبةً أعرفها حقَّ المعرفة ، أَلمَحُ فيها أرواحَ « ابن سينا » و « الفارابى »

و « ابن رُشْد » ومن إليهم من العلماء والأُدباء والفقهاء . . .

كنتُ أسير وأتابع سيرى ، حتى يؤدِّىَ بى الطريقُ إلى « خان جعفر » ، فسرعان ما أتَّجه إلى مبنًى أثرىٍّ وديع ، فلا أكاد ألِجُ بابه حتى أجدَ فيه على دَكَّة فى ركنٍ قصىٍّ شيخاً وَقوراً ، جالسا جِلْستَه الرَّخية ، فى ملابسَ ساذجة ، متلفعاً بعباءته ومُطْرَفِه ، وهو قانع بعزلته يستمرئ سُوَيْعات طمأنينة وصفاء ، ويحتسِى الشاى على مهَل ، ويدخِّن اللفافة تِلْوَ اللفافة ، كأنه يستعيضُ بمسامرتها عن مجالِسِ الناس . . .

إذا تفرستَ فى وجهه طالعتَ فيه غضوناً ومَثانِىَ تطوى أعباء السنين وتجاربَ الحياة ، وعلى جبهتِه العريضة تتوضَّحُ سِماتٌ من الألمعيَّة وتوقُّد الذهن ، ومن هذه الطَّلْعة الزاخرة بألوان التعابيرِ ينبعث نورٌ يُشعِرُكَ بأنك أمام رجلٍ فذٍّ ، وشخصية عامرة .

ذلك هو صديق الشيخ « إبرهيم الدَّبَّاغ » !

كان لا يكادُ يُحِسُّ قدومى ، حتى يغمرَنى بفيض من التحية والحفاوة يذكِّرنى بَشاشَةَ الرجل العربىِّ وما يحمل بين جنبيه من الشمائل الْحُسْنَى والسجايا الغُرِّ . . وكأن هذا اللقاءَ البهيجَ هو أولُ الغَيث الذى ألقاه من مُتْعَةٍ صافية فى ذلك الجوِّ الشرقىِّ الحبيب !

وما أسرعَ أن يُفيضَ الصديق علىَّ من نَبعه المتدفق إيناساً وإمتاعا . فيسترسل فى حديثه ، وأنا مُصْغٍ إليه ، أرقُب مُحيَّاه النبيل الذى أسبغتْ عليه الشيخوخةُ رَوْعَةً ومهابة .

كان ذَلِقَ اللسان ، عَذْبَ الكلام ، فَكِهَ الرُّوح ، تتخلَّل نبراتُه

تلك البُحَّة الرقيقة ، وهو يُفرِغُ نفسَه فى حديثه ، فيتجلَّى فيه صدقُ اللهجة ، وطهارةُ الإخلاص ، والدِّقة فى الوصف والتعبير . . . فكأن كأنه يبعث أمامى صورا حيَّة مُجسَّدة لمن يتناولهم بالحديث ، صورا يُضْفِى عليها من عبقرية الشاعر ، ورُوح الفنان ، ما يجعلها أمثلةً جميلة من خَلْقِ الفنِّ الرفيع !

ولقد كان آية عصره فى قوة الذاكرة ، وحضورِ البديهة ، وسَعَة الاطِّلاع . وكان أعجوبةَ الزمن فيما يختزنُ فى صدره من شئون الناس وأحداثِ الدهر ، إلى جانِب ما يَرْوِى من فاخر الشعر وبارع النوادر .

إنك لَتُمْضِى الساعةَ فى إثر الساعة ، وأنتَ بهذا الحديث مسحورُ السَّمْع ، مسحور الفؤاد . تمرُّ عليك أشتات العصور وألوان الشخصيات وضروب المشاهد والأحداث ، فكأنك تَشْهَدُ « فِلْماً » رائعا تَرَى فيه دُوَلاً تدول وأخرى تَنْهَض ، وقصوراً تتداعَى وأطلالا تَشْخَص ، وأقدارا تتداوَلُ أُناساً بالطُّلوع والأفول . . .

وإن مُحدِّثك العظيمَ ليبلغ قِمَّة الروعة إذا تناولَ بحديثه تلك الحِقْبة التى عاصرها ، وتلك الشخصياتِ التى لَقِيَها وصاحبها . إنه ليتحدَّث عن أمراء عروش ، ووزراء دُوَل ، وزعماء شعوب ، وقادةِ فكر ، ورُسُلِ إصلاح ، وطلائع نهضة . . . ويُعرِّجُ بحديثه يَمْنَةً ويَسْرَةً ، فتراه يُغيرُ ويُنْجِدُ ، فيتحدَّث عن الصعاليك والمفاليك وأهلِ المغامرة ورُوَّادِ السَّبيل وغيرهم من المُبرِّزين فى حَلبات الحياة على اختلافِ طبقاتها عاليةً ودانية . . .

وتستمع إليه حيناً ، فإذا هو يَنْبُشُ دفائنَ الأسفار فى أدب أو لغة

أو تاريخ ، وإذا هو يقصُّ عليك من غريب الروايات وشائق الأسمار ما يدلُّكَ على أنه جوهريٌّ ماهر فى التمييز بين اللآلىء والأصداف !

فإذا استنشدته من قريضِه ، أنشدكَ قلائدَ وخرائد ، فتسمع شعراً رقيقاً يفيضُ بصدق العاطفة ، فى ديباجةٍ عربية المَنْزِع ، ترجع بفصاحتها إلى عصور العربية الزواهر . وإنه ليَسْهُلُ عليك أن تعرف طابَعه فى شعره ، وأن تُمَيِّزَه من غيره من الشعراء بخصائصه التى لا ينازعه فيها منازِع .

وإن كان لنا أن نأسى على شىء فاتنا منه ، فإن أولَ ما يؤسفنا أنه لم يُعْنَ بتدوين مذكراته ، ولم يُودِعْ بطونَ الصحائف ما أوْدَعَ صدره الرَّحْبَ من غوالِى الذكريات .. ولو عُنِىَ بتدوينها لكان لهذه المذكرات أكبرُ شأن فى اجتلاء رُوح العصر الذى عاش فيه . وهو حِقْبَةٌ من تاريخ الشرق لها أكبرُ الأثر فى توجيه مصايره . فإنها طليعةُ وَعْىِ الشرق ، ومَشْرِقُ يقظته ، وفاتحةُ أُهْبَتِه للجهاد فى سبيل التحرُّر والنهوض .

باختفاء ذلك الشيخ الكبير تَخْتَفِى تلك المَعْلَمَةُ الضخمة ، وذلك السِّفْر النفيس . . فوا أسفاه عليه وعلى ما وَعَى صدرُه من تاريخ الجيل !

لقد عاش الشيخُ « الدبَّاغ » عمرا ليس بالقصير ، اتصل فيه بالناس خاصّة وعامة ، وذاق فيه الحياةَ شَهْداً وصاباً ، فتغلغل فى صميم الدنيا ، وفَهِمَها حقَّ الفهم لم يَعِشْ حياته عَبَثا ، بل أفاد من كل لحظة ، وانتهز كل فرصة ، فكانت تجارِبُهُ أضعافَ عمره ولقد وَلَّى عن الحياة بعد أن اشْتَفَّ الكأس ، واستوعَبَ الثُّمالَة . . . وكأنه ينظُر إلى الحياةِ قائلا :

ماذا فى مستطاعك أن تقدِّميه إلىَّ بعدُ ؟

سأبرحُكِ إلى ما هو خيرٌ وأبقى .

سأواجهُ حياةً جديدة أنعمُ بها فى العالَم الآخر .

أيتُها العاجلة الفانية :

لقد بَليت ، وذَبُلَتْ زهرتُك فى يدى ، فأنا ماضٍ عنكِ إلى نعيمٍ مُقيم .

أىْ صديقِى الراحل .

أَستَوْدِعُكَ اللهَ .

وإلى لقاءٍ نستأنف فيه حُلوَ الحديث ، لا فِى «خانِ جعفرٍ» ولكن فى «خانِ رِضْوَان» . . . نَجْلِسُ على أَرِيكَةِ الفِرْدَوْسِ ، ونُسْقَى من رَحيقٍ مختوم !

السيد طبنجات

كان بدء اتصالى بـ « على حسن سليمان » أعنى الأستاذ « طبنجات » منذ أكثر من عشرين عاماً ، إذ كنتُ أعملُ على نشرِ مؤلفات شقيقى المرحوم « محمد تيمور » . قدّمه إلىّ صديقنا الأستاذ « زكى طليمات » ، لينْسخ بعضَ أصول الروايات . فالتقينا فى منزلى . ولا أزال أذكُر تلك اللُّقْيَة الأولى فى الحديقة ، حيث أخذْنا نتبادل الحديث . وراعنى منه أولَ مرة ذَلاقةُ لسانه ، وقوةُ تدفّقه ، فما أسرَع أن ملَكَ زمام الموْقفِ ، واندفع يتحدَّث فى شتّى الشئون التمثيلية ، فلم أملكْ إلا التسليمَ له بالبطولة فى فن الكلام .. وانتهتْ هذه اللُّقْيَة دون أن نتعرّضَ للموضوع الذى حَضَر من أجله . فكانتْ هذه أولَ بادرة من خصائص الأستاذ !

وتوالَى لقاؤنا بعد ذلك ، فتوضحتْ لى شخصية السيد « طبنجات » جانباً بعد جانب . وكان أكبرَ ما توضح لى منها أنها شخصيةٌ ليست من الهنَات الهيِّنات ، بل إنها متشابكةُ النواحى ، تستوجبُ الفحصَ والتشريح . وليس من العجيب أن أجدَ هذه الشخصية التى طالعَتْنِى بطرافتها وشذوذها يوماً بعدَ يوم ، تُلهِمُنِى عملًا من أعمالى الأدبية ، أقصِدُ قصةَ : « أبو على عامل أرتيست » . . .

وينبغى أن أنبّه إلى أننى لم أُرِدْ فى قصتى وَصْفَ السيد « طبنجات » والتقيُّدَ بتاريخ حياته . بدليلِ أنى قلتُ فى وصف « أبو على » بطل قصتى : « وكان قزَماً هزيلَ الجسم ، بيدين طويلتين كيدى الغوريلا ، ووجه طويل أعجف ، بأنفٍ مدلى على فمه ... » وكل الذين يعرفون « طبنجات » يدركون بالبداهةِ أن هذه الصفات لا تنطبقُ عليه تمامَ الانطباق !

هذا من جهةِ الوصف ... فأما من جهة تاريخ الحياة ، وموافقتِه لما فى القصة ، فقد أثار فِىَّ الدهشةَ أنى تبيَّنتُ بعضَ التشابُهِ بين ما أوحتْه إلىَّ المُخيِّلَة وما ثبَتَ لى أنه واقعٌ من حوادث الأستاذ ...

فلا أنسى أنه ذاتَ يوم ، بينما نحن خاليان فى الحديقة ، إذ طلبَ إلىَّ أن أنْتحِىَ به ناحيةً لِيُسِرَّ إلىَّ شيئاً . وهناك كشف لى عن حقيقة هذه المُشابهة فى بعض المواقف !

وعلى الرَّغْمِ من ذلك كله ، فإن ثَمَّةَ فوارق متعدِّدة بين القصة والرجل والبرهان الأعظم على ذلك أن « أبو على الأرتيست » انتهت حياتُه فى شرْخِ الشباب ، فأراح واستراح ، ولكن السيد « طبنجات » — أطال الله بقاءه — جاوز حدَّ الأربعين ، وما يزال حيًّا يَسْعَى حتى كتابةِ هٰذا المقال !

والمعروف عن الأستاذ أنه « نسَّاخ » فى « الفرقة القومية » وفى بعض الروايات السينمائية تُسْنَد إليه أدوار هزْلية سريعة . والحقُّ أن هذا ليس معبّرًا عن مواهبه الكثيرة التى يعرفها له أصدقاؤه . ونحب أن نُظهر منها ثلاثا ، وما خفِىَ كان أعظم :

أولاً : أنه يجيد فنَّ « التراجيديا » وقد شَهِدَتْ له بعضُ المحافل الخاصَّة مواقفَ من روايَتَيْ « عُطِيل » و « أودِيب الملك » وأُعجِبَتْ به أيّما إعجاب . . .

ثانياً : أنه شاعر قدير ، ولكنه لايَحْفِلُ بنشر قصائده ، أو على الأصحِّ لايعتمد على الصُّحُف في نشرها ، وإنما يُذِيعُها بنفسه بين من يأنسُ فيهم تقديره . وقد وجد أن هذه الوسيلةَ أَنْجَعُ في التمكُّن من آذانِ السامعين !

ثالثاً : أنه نَقَّادة ماهر ، آخِذٌ بناصية فنّه ، مع تشعُّب هذا الفنِّ وعُمْقه . وهو في الواقع متعشِّق للنقد ، شديدُ الحِسِّ في شأنه ، حتى إنه في بعض الأحيان لا يَمْلِكُ نفسَه إذا لم يُعْجِبْه كلام فيما يَنْسَخُه من روايات المؤلفين ، فتراه يُصْلِحُ مايبدو له ، غيرَ لاوٍ على شيء . .

وقد وقع منه أثناء نَسْخِه لي بعضَ القطع أن قلمَه لم يُعْفِنِي من التغيير والتبديل وإنني — مع اعترافي بأنه على حقٍّ فيما اقترفَ . . . — لم يَسَعْنِي إلا الاحتفاظُ بما في الأصل الذي كتبتُه ، إبقاء على المجهود الفنيّ للأُستاذ أن يَضيعَ في آثارِ الغيْر !

وخَشْيَةَ الإثقالِ على القارئ ، لم نَذْكُرْ أنه مؤلف مسرحيّ ، وأنه كذلك قَصّاص وَحَسْبُه أن له في الميدان الأول رواية « الحشرات » التي يعرفُها كل من يشترك في أحاديث « قهوة الفنّ » . . . فأما عملُه في الميدان الآخر فهو أدْهَى من أن نُجْمِلَه في سطور . وهناك في داره كُومَاتٌ مكدَّسَة من الأوراق المُحَبَّرة تجمع شتات مؤلفاته التي كان

يتوالى ظهورُها لو قامتْ فى البلد هيئات منظَّمة ، تُعْنَى بإنتاج أهل الفنِّ المظلومين ! .

وفى ظنِّى أن هذا الحديثَ المُوجزَ يصوِّر للقارئ على وجه السرعة شخصيةَ السيد « طبنجات » .

ولعلى أكون بذلك قد أدَّيْتُ دَيْنَ الأستاذِ علىّ ، إذْ كانتْ أحاديثُه الغالية وَحْيًا لأثرٍ من الآثار القَصَصِيَّةِ التى جرَى بها القلمَ !

فهرست

أحدث مؤلفات

الكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور بك

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

مجموعات قصصية :

- كل عام وأنتم بخير
- إحسان لله
- خلف اللثام
- شفاه غليظة
- بنت الشيطان
- مكتوب على الجبين
- فرعون الصغير
- قال الراوى
- شباب وغانيات

قصص تمثيلية :

- ابن جلا
- فداء
- اليوم خمر
- حواء الخالدة
- المخبأ رقم ١٣
- سهاد
- المنقذة
- عوالى
- قنابل
- أبو شوشة والموكب

قصص مطولة :

- كليوباترة فى خان الخليلى
- سلوى فى مهب الريح
- نداء المجهول

صور وخواطر :

- شفاء الروح
- ملامح وغضون
- أبو الهول يطير
- عطر ودخان
- فن القصص
- ضبط الكتابة العربية

عرض وتحليل
للكتب التي أصدرتها لجنة نشر المؤلفات التيمورية

ضبط الأعلام

مرجع صحيح لبعض الأعلام التى ردت إلى أصلها خالية من التحريف اللسانى أو التصحيف القلمى . وكثيراً ما يعيا الأدباء والمشتغلون بالتاريخ الأدبى بالبلدان أو سواها لمعرفة النصوص الأدبية .

الأمثال العامية

هو وصف كامل لعيشة الناس وأحوالهم فى طرافة وفى إبداع ، يتحدث عن العامة وغير العامة بلسانهم ، ويصور حكمتهم . (سيعاد طبعه)

الكنايات العامية

قاموس شامل لكنايات العامة ودورانهم فى العبارة ، ولفقهم المعنى مع اللفظ علاوة على الدقة فى الحبكة الموسيقية .

لعب العرب

ثمرة من ثمرات مطالعات تيمور باشا الكثيرة الفنية ، ودراسة وافية لشتى الألعاب فى الصدر الأول .

(سيعاد طبعه)

البرقيات للرسالة والمقالة

هى نثر مضغوط ضغط الشعر ، محبوك حبكته ، قليل الألفاظ ، غزير المعنى . بل هى نفسها البلاغة التى تغنى فى إيجازها عن تفصيلها .

أوهام شعراء العرب فى المعانى

من الذخائر العلمية النفيسة ، والمراجع الوافية الدقيقة ، التى لا يستغنى عنها كاتب أو أديب .

رسالة فى الرتب والألقاب

عن ألقاب رجال الجيش وسائر الهيئات العلمية وأرباب القلم منذ عهد أمير المؤمنين عمر الفاروق إلى الآن .

شفاء الروح

للكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور بك عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية يتضمن ألواناً شتى من الرسائل الأدبية النفيسة .

كتب خطية نادرة (تحت الطبع)

ديوان عائشة التيمورية

مضافاً إليه القصائد التي لم يسبق نشرها ، إحياء لذكراها الخالدة ، وتقديراً لمكانتها العلمية والأدبية .

التذكرة التيمورية

معجم شامل للأعلام والبلدان والبحار والأنهار ، وهو يقع في جزءين .

معجم العامية المصرية

وهو من المدهشات في التحقيق اللغوى ، ويقع في أربعة مجلدات من الحجم الكبير .

المواكب الأدبية

مجموعة نفيسة تتضمن كثيراً من الفوائد والنوادر في اللغة والأدب .

الآثار النبوية

وهى بحوث تاريخية نفيسة اختتم بها تيمور باشا حياته .

ضبط الأعلام والنسب والبلدان

رأت اللجنة إعادة طبع كتاب ضبط الأعلام مضافاً إليه النسب والبلدان طبعة جديدة في جزءين .

وغير ذلك من الكتب الخطية النفيسة التي تنشرها اللجنة تباعاً ولا تستغنى عنها المكتبة العربية الحديثة . وتطلب هذه الكتب من سكرتير عام اللجنة

الأستاذ أحمد ربيع المصرى

بدارها بميدان المبدولى بجوار متحف فؤاد الصحى — عابدين بالقاهرة

تليفون : ٧٧٧٩٣

ومن جميع المكتبات الشهيرة في مصر والأقطار العربية